



هذا الرجل

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة

هذا الرجل

يا من أتقنت فنون السحر وخُضت دروبًا للأسرار
وجعلت سماءك موج البحر وأرضك لفحات من نار
امنحنى دفئًا ملء النهر وأمنًا فى أرض الأخطار
وحنانًا يملأ قلب الزَّهر وحبًّا من كل الأشعار
وسأمنح قلبك نبض العمر وعشقًا ترويه الأمصار
وتصير حياتى أبد الدَّهر قصيدة حبك لا تنهار

١ ـ هنــاك ..

« إلى (روما) .. » ..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى الأب ، وهو ينطق تلك الكلمة ، متطلعًا إلى وجه ابنته الوحيدة (سُميَّة) ، التى اتسعت عيناها فى سعادة ، والتمعتا ببريق فرح جزل ، قبل أن تهتف :

ـ أحقًّا يا أبى ؟.. أنذهب إليها هذا الصيف ؟

أومأ برأسه إيجابًا فى بطء ، وابتسامته العريضة ما زالت تملأ وجهه ، فأطلقت (سُميَّة) صرخة فرح ، وقفزت تتعلَّق بعنقه ، وتغمر وجهه بالقُبلات ، وهى تهتف :

ـ أخيرًا يا أبى .. أخيرًا سيمكننى أن أتباهى كزميلاتى ، بأننى مثلهن ، يمكننى قضاء الصيف فى (أوروبا) .

تنحنح والدها ، وهو يغمغم :

ـ ليس الصيف بالمعنى المعروف ، ولكن .....

أبعدت ذراعيها عن عنقه ، وتراجعت هاتفة فى استنكار وغضب طفولىّ :

ـ ولكن ماذا ؟

أطلق والدها ضحكة حرجة ، والتفت إلى أُمِّها ، قائلًا :

ـــ حسنًا .. مَنْ سيخبرها ؟

ضربت (سُميَّة) الأرض بقدمها ، كما يفعل الأطفال ، وهى تهتف :

ـــ ماذا يحدث هنا ؟.. أهو سرّ ؟

ابتسمت أُمّها فى حنان دافق ، وهى تقول :

ـــ ليس سرًا يا بنيَّتى ، فثلاثتنا ندرك جيّدًا أن مرتب والدك لا يكفى لمثل هذا الترف ، وأنه ـــ ومهما ارتفع منصبه ـــ مجرَّد موظف فى مصانع (ماجد عثمان) .

مطَّت (سُميَّة) شفتيها ، وغمغمت فى لهجة من يُضطرَّ لقبول الأمر الواقع :

ـــ أعلم ذلك .

أضافت أُمّها ، وهى تمسح بيدها على شعرها فى حنان :

ـــ ولقد حصل والدك ، بعد عشرين عامًا من العمل الشاق ، على فرصة للسفر إلى (روما) ، لمدة أسبوع واحد ، لحضور معرض خاصّ بالمنتجات المماثلة هناك ، باسم المصنع ، و .....

صمتت لحظة ، وتبادلت نظرة حانية مع الأب ، قبل أن تتابع :

ـــ وكان المفروض أن أصحبه أنا فى هذه الرحلة ، لحضور الحفل الختامى للمعرض ، ولكن .....

التقط والدها طرف الحديث ، وأكمل :

ـــ ولكننا رأينا أنك ستكونين أكثر سعادة بالذهاب .

رانَ على المكان صمت مُطبِق ، اغرَورَقَت خلاله عينا (سُميَّة) بالدموع ، قبل أن تقطع حبل الصمت ، هاتفة :

ـــ أمَّاه .

ثم ارتمت بين ذراعَىْ أمِّها ، وانفجرت باكية ، مستطردة :

ـــ أنت أعظم أمّ فى الدنيا .

ضمَّتها أُمّها إلى صدرها فى حبّ ، وسَرَى دِفْء حنانها إلى الحجرة كلها ، وهى تقول فى صوت خافت :

ـــ بل أنت أجمل ابنة فى الدنيا كلها .

مسح الأب دمعة خدعت جفنيه ، وفرَّت بينهما ، وحاولت أن تواصل هروبها فوق وجنته ، إلّا أنه أسرع يغتالها ، ويرسم بقاياها ابتسامة حانية على شفتيه ، قائلًا :

ـــ المهم أن الأمر يحتاج منّا إلى الإسراع ، فمن الضرورىّ أن نستخرج لك جواز السفر ، و .....

قاطعته وهى تنتزع نفسها من بين ذراعىْ أُمِّها ، وتقفز لتتعلَّق بعنقه مرَّة أخرى ، هاتفة :

ـ دَعْ لى هذه المهمَّة يا أبى .. لن يغمض لى جفن ، قبل أن أحمل جواز سفرى ، مع تأشيرة الدخول إلى (إيطاليا) ، فى حقيبتى الخاصَّة .. اطمئن ..

قالتها وطبعت على وجنته قُبلة حبّ وامتنان ، وأسرعت تمنح أمّها مثلها ، ثم تندفع نحو حجرتها ، وتغلق بابها خلفها ، ثم تُلْقى جسدها فوق فراشها ، وهى تلهث فى انفعال ..

ومع ارتفاع صدرها وانخفاضه ، وخفقات قلبها البِكْر ، راحت أفكارها تحلّق فى سقف الحجرة ..

بل فى السماء ..

فى سماء أحلامها ..

كانت تعلم أنها جميلة ، لها وجه بيضاوىّ رقيق ، وشعر أسود ناعم ، وعينان فى لون الفحم الأسود ، عندما يتم غسله بالماء ، تلتمع زواياه ، دون أن يفقد قتامته ، أو قُدرته على استيعاب النيران ، وبعث الدِّفْء فى الأجساد والقلوب ..

وكم سمعت شهقات الإعجاب ، ورأت شوق العيون ، وهى تتطلّع إلى شفتيها ، اللتين منحهما الله (سبحانه وتعالى) رِقّة

الدنيا ، ونعومتها ، ودفأها ، وإلى عنقها الناعم الطويل ، ورموشها السَّوداء الحانية ..

كانت كلها جميلة .. رقيقة ..

ووالدها يحتلّ مركزًا مرموقًا ، فى مصانع (ماجد عثمان) لأدوات التجميل ، ولكن هذا لم يمنحه أكثر من راتب محدود ، صحيح أنه يتجاوز راتب أى موظف حكومىّ ، فى مثل عمره ومنصبه ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يمنحه رَغَد العيش ، وإنما يؤمّن له حياة هادئة ، خالية من متاعب العيش الأولية ..

وبحكم منصب والدها ، كانت معظم صداقاتها مع فتيات العائلات الثريَّة ..

وبحكم دخله ، لم يكن بإمكانها أن تواكب إنفاقهن ..

ولقد كُنَّ يعلمن جميعهن أنها الأجمل ، والأكثر تفوُّقًا فى دراستها ؛ لذا فقد رُحن يتباهين عليها بثرائهن ، ومدى ما تمنحهن أسرهن من مزايا ، ونقاط تفوُّق مادّىّ ..

وكان هذا يُشعرها بالضآلة وسطهن ، والغربة بينهن

وكلما جاء الصيف كان شعورها هذا يتضاعف ؛ لأنَّهُنَّ كُنَّ يغادرنها إلى دول (أوروبا) لقضاء الإجازة ، ثم يعدن ليتباهين أمامها بذكريات رحلاتهن ، ورونق مشترياتهن خلالها ..

لهذا شعرت بسعادة غامرة ؛ لأنها ستصبح مثلهن هذه المرّة ..

صحيح أن رحلتها لن تستغرق أكثر من أسبوع واحد ، وأنها لن تنجح فى العودة بقدرٍ مساوٍ من المُقْتَنَيات ، ولكنها ستعود — على الأقل — بِطنٍّ من القصص والذكريات ، وسترسل لكل صديقاتها بطاقات تذكاريّة من هناك ، و .....

راحت ذكرياتها تتدفّق مع أحلامها ، واختلطت هذه بتلك ، وامتزجتا ، حتى أشرق الصباح ..

وعلى الرغم من أنها لم تنم لحظة واحدة طِيلة الليل ، إلّا أنها بدت مُفْعَمَة بالنشاط ، وهى تغادر منزلها فى الصباح التالى ، وتنطلق إلى كليتها بكل الحيويّة ، لإحضار كل الأوراق اللازمة لاستخراج جواز السفر ..

وكم كانت سعادتها ، وهى تخبر الجميع بسبب استخراجها لجواز السفر ..

وكم بلغت فرحتها ، وهى تبلغ زميلاتها بالذات عن استعدادها للسفر إلى (إيطاليا) هذا الصيف ..

لم تبلغهن كيف ستذهب ، وكم ستقضىْ هناك ..

فقط أبلغتهن بأمر سفرها ..

وعلى الرغم من صعوبة استخراج الأوراق اللازمة ، وتعَنُّت موظَّفى الكلية ، وإجراءات الرُّوتين المعقَّدة ، إلّا أنها راحت تبذل أقصى جهدها فى صمت وصبر ، دون أن تشكو مرَّة واحدة ..

كان من المستحيل أن تتخلّى عن حُلمها ، مهما كان الثمن ..

ولقد نجحت ..

صحيح أنها لم تحصل على جواز السفر نفسه ، ولكنها حصلت على كل الأوراق اللازمة لاستخراجه ..

وفى اليوم التالى قدّمت أوراقها إلى إدارة الجوازات ..

وفى اليوم الثالث تسلّمت جواز سفرها ..

لا أحد يمكنه وصف سعادتها ، لحظة تسلّمته يدها ..

لم يدلها مجرَّد جواز سفر ، وإنما جواز انطلاق إلى عالم جديد ..

عالم زميلاتها ..

وعندما عادت إلى منزلها ، وهى تحمل جواز السفر ، كانت تتقافز فى سعادة بالغة ، كأنما تحمل تاج الأرض وصولجان السعادة ..

كانت أسعد لحظة فى حياتها ..

حتى هذا الوقت ..

لقد بدت لها سعادتها هذه خاوية ، ضعيفة ، عندما قارنتها ــ بعد أربعة أيام فقط ــ بذلك الشعور القوى ، الذى اجتاحها فى عُنف ، وهزَّ مشاعرها فى قوَّة ، وأطلق الدموع من عينيها ، وجعل قلبها يخفق كما لم يخفق من قبل ..

كان ذلك عندما حلَّقت بها الطائرة إلى (روما) ..

كانت تجلس إلى جوار والدها ودموع السعادة تغرق جفنيها ، وهى تهتف مَبهورة مَشْدُوهة :

ــ لست أصدِّق .. لست أصدِّق .

ربَّت والدها على كفِّها فى حنان ، وهو يقول :

ــ صدِّق يا (سُميَّة) .. إننا فى طريقنا إلى هناك .

هتفت :

ــ لن أصدِّق حتى نصبح هناك بالفعل .

ابتسم مغمغمًا :

ــ إنما هى بضع ساعات ..

لم تُطِق صبرًا على الانتظار ..

راحت تراجع كل النشرات والكتب السياحية ، التى تتحدَّث عن (روما) ، والتى حملتها معها من (القاهرة) ..

وفى شغفٍ راحت تلتهم الكلمات والصُّوَر التهامًا ..

واستغرقها الأمر ، حتى خُيِّل إليها أنها قد بلغت (روما) بالفعل .

وفجأة ، ارتفع صوت مضيفة الطائرة ، وهى تطلب من الركَّاب ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين ، استعدادًا للهبوط فى مطار (روما) ..

وأخيرًا ، وجدت (سُميَّة) نفسها فى (روما) ..

والعجيب أن بلوغها الهدف كان أقل إثارة من شوقها إليه ..

ولو توَخَّينَا الدِّقَّة ، فسنقول إن بلوغها هدفها قد بعث فى أعماقها شيئًا من خيبة الأمل ..

لقد كانت تتوقَّع أن تجد نفسها فى مكان يختلف عن (مصر) تمامًا ..

أليست إحدى دول (أوروبا) ..

ولكن (روما) بدت لها شديدة الشبه بـ(القاهرة) ..

صحيح أن مبانيها أكثر عراقة ، وجوّها أكثر رطوبة ، ولكن الوجوه هناك تشبه نفس الوجوه فى (القاهرة) ، مع لمحة من النَّمَط الأوروبى ..

حتى الباعة ، وسيّارات الأجرة ، والحافلات ، كلها تشبه مثيلاتها فى (القاهرة) ..

وبدت خيبة أملها فى وجهها ، حتى أن والدها قد ابتسم ، قائلًا :

— إنها تشبه (القاهرة) .. أليس كذلك ؟

أجابته فى صوت يخلو من الحماس :

— كثيرًا .

ابتسم ، وهو يتطلّع إليها ، فى إشفاق ، ثم قال فى حماس :

— هذا التشابه ظاهرى فحسب ، ولكن الحياة هنا تختلف تمامًا عن الحياة فى (القاهرة) .

غمغمت فى إحباط :

— وعن (لندن) و (باريس) بالتأكيد .

بدت لوالدها مُحَيِّرة ، بعد أن خبا حماسها كله هكذا بغتة ، فردّد فى يأس :

— هذا ما كان متاحًا .

أشرق وجهها بابتسامة سعادة ، وهى تهتف :

— وهذا أروع ما فى الأمر .

ثم مالت على وجنة أبيها ، وطبعت فوقها قُبلة حانية ، وهى تستطرد :

— أن نكون معًا .

وأطلقت ضحكة صافية ، قبل أن تتابع :

— المهم أن نبتاع مجموعة كاملة من البطاقات السياحية

أطلق والدها بدوره ضحكة مرحة . قائلا :

— سنفعل بإذن الله .

وتابع فى جدّيّة :

— ترى هل يتحدّثون الإنجليزية هنا ؟.. إننى لا أجيد سواها .

ضحكت قائلة :

— لِمَ لا نحاول ؟

ثم أشارت إلى إحدى سيّارات الأجرة . وقالت للسائق بالإنجليزية :

— هل تتحدّث الإنجليزية ؟

حدّق السائق فى وجهها لحظات ، ثم راح يلوّح بكفّيه ، ويتحدّث بالإيطالية فى سرعة كبيرة ، وهو يشير هنا وهناك ، وكأنما يحاول شرح أمر ما ، فهتف والدها :

— إنه لا يتحدّثها .. عجبًا !!.. كنت أظن سائقى السيّارات ، فى المناطق المجاورة للمطارات ، يتحدّثون اللغات الأجنبية حتمًا .

ضحكت قائلة :

ــ ربما كان هو أيضًا يظن أن كل مَنْ يأتى إلى (روما) ، يتحدّث الإيطالية حتمًا .

أغْرَقَ الاثنان فى الضحك ، والسائق يتطلّع إليهما فى حَيْرة ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وألقى عبارة إيطالية ساخطة ، وابتعد بسيّارته فى حِدّة ..

وهتف الوالد :

ــ والآن ماذا نفعل ؟.

أجابته (سُميّة) :

ــ نحاول مع آخر .

قالتها ، وراحت تتقافز كالأطفال ، وتلوّح بكفّها لسيارات الأجرة ، حتىّ توقّفت أخرى إلى جوارهما ، فمالت نحو سائقها ، وهى تقول فى أمل :

ــ قُلْ لى : أتتحدّث الإنجليزية ؟

تمتم السائق بإنجليزية ركيكة :

ــ بعض الشىء .

تهلّلت أساريرها ، وأسارير والدها ، الذى أسرع يلتقط من جيب معطفه ورقة مَطْويّة ، ويناولها إلى السائق .. قائلاً :

ــ فلنشكر الله (سبحانه وتعالى) .. هل يمكنك أن تذهب بنا إلى هذا العنوان ؟

تطلّع السائق إلى الورقة لحظات ، ثم غمغم :

ــ أظن ذلك .

وقبل أن ينطق أحدهما ، استطرد فى حزم :

ــ مقابل مائتى ألف ليرة .

صاحت (سُميّة) فى استنكار :

ــ ماذا ؟.. إلى أين تظن نفسك ستقلنا ؟.. إلى المريخ ؟!

صاح السائق فى حِدّة :

ــ بل إلى عنوان تجهلانه ، فى دولة تجهلان حتى لغتها ، و .....

صرخت فى وجهه مقاطعة :

ــ أنت حقير .

احتقن وجه السائق ، وانعقد حاجباه فى غضب ، وصاح :

ــ من الواضح أنكما أجنبيّان .

ثم اندفع خارج السيّارة ، مستطردًا فى ثورة :

ــ لأنه ما من امرأة تجرؤ على توجيه مثل هذه الإهانة لـ (ماريانى) .

تراجعت (سُميَّة) ، وهى تشهق فى خوف ، فى حين اندفع والدها نحو السائق ، قائلًا فى توتُّر :

ــ مهلًا .. إنها لم تقصد ، و ......

ولكن السائق هَوَى على وجه الأب بلكمة ، صرخت لها (سُميَّة) رُعْبًا وجزعًا ولوعةً ، وشهق لها الأب دهشةً ، وتأوَّه لها ألمًا ، وهو يسقط أرضًا ..

وصرخت (سُميَّة) :

ــ أيها الوقح الحقير .

واندفعت نحو السائق فى غضب ، فرفع كفَّه ودفعها صائحًا :

ــ ابتعدى أيَّتها اللَّعينة .

صاح والدها ، وهو يراها تسقط إلى جواره :

ــ ابنتى !!

وجدت نفسها فجأة على الأرض ، فى البلد الذى حَلُمت بزيارته طويلًا ، وإلى جوارها والدها ، وقد أهانهما سائق إيطالىّ ، فى أوَّل لحظاتهما فى موطنه ..

لحظتها أدركت الفارق الضخم ، بين الحُلْم والحقيقة ..

لحظتها أدركت أن التشابه بين (القاهرة) و (روما) مظهرىّ بحت ..

وبكت ..

بكت بدموع تحمل كل مرارتها وألمها وقهرها وضعفها .

وأحاطها والدها بذراعيه ، وهما بَعْدُ على الأرض ، هاتفًا فى لَوْعة :

ــ (سُميَّة) !.. أتبكين ؟!

وفجأة ، ظهر هو ..

ظهر الفارس ..

* * *



٢ ـ هُوَ ..

تمامًا كما يحدث فى روايات المغامرات ..

كان ذلك السائق الإيطالىّ يقف أمامها وأمام والدها ، وهما مُلْقَيان أمامه أرضًا ، يلوّح بكفّه مهدّدًا ، مَزْهُوًّا بقوّته أمام فتاة رقيقة هشّة ، ورجل تجاوز الخمسين من عمره ، والشتائم الإيطالية تنهال من شفتيه عليهما ، وقد تجمّع المارّة ..

وفجأة ، ظهر ذلك الشاب ..

ظهر بوجهه الوسيم الغامض ، وملامحه التى لا توحِى أبدًا بمنبته ، وقامته الممشوقة ، وعينيه الصارمتين ..

وبلغة إنجليزية واضحة ، وبأسلوب قوىّ ، ولهجة حازمة آمرة ، تقدّم نحو السائق ، قائلًا :

ـ اعتذر لهما .

خُيّل لـ (سُميّة) أن العالم كله قد صمت فى رَهبة ، إزاء هذا الموقف ، الذى لم يتوقّعه أىّ مخلوق ، وبدا لها الشاب ، على الرغم من قامته القويّة ، أشبه بقزم نحيل أمام ذلك السائق

الضخم العِملاق ، الذى التفت إليه فى دهشة أوّلًا ، ثم لم تلبث دهشته أن استحالت إلى مزيج من الغضب والسخرية ، وهو يهتف بعبارة إيطالية ، لم تُدرك (سُميّة) معناها ، وإن أدركت على الفور مغزاها العُدْوَانىّ ، وأدهشها كثيرًا أن الشاب بقِىَ هادئًا ، وهو يكرّر بالإنجليزية ، وبنفس اللهجة الآمرة الحازمة :

ـ اعتذر لهما .

تلاشت السُّخرية من عينى السائق ، وبَقِىَ الغضب .. الغضب الوحشىّ ..

وبدا من الواضح أن الأمر سينقلب إلى معركة ، فقد تراجع الجمع المحيط بالمكان فى سرعة ، وأطلّ مزيج من القلق والشفقة من العيون ، فأسرعت (سُميّة) تنهض ، وهى تقول فى توتّر :

ـ لا داعِىَ .. لسنا نحتاج إلى اعتذار .

ثم مدّت يدها لتعاون والدها على النهوض ، وهو يغمغم بدَوْرِه :

ـ نعم .. لسنا نحتاج إليه .

التفت إليهما الشاب ، وقال بالإنجليزية فى هدوء ، وهو يشير إلى السائق الإيطالىّ الضخم :

— ولكن هذا الحقير يحتاج إلى درس جيِّد ، يجبره على احترام زبائنه .

اتسعت عينا السائق فى غضب ، ثم صاح ثائرًا ، واندفع نحو الشاب ، كفيل ضخم ، دفعته عاصفة هوجاء نحو فهد نائم .

وصرخت (سُميَّة) ، وهى تتراجع مع والدها فى ذُعْر ..

ثم تجمَّدت الدماء فى عروقها ، واتسعت عيناها فى ذُهول ، وارتفعت من حولها شهقات دهشة وإعجاب ..

لقد تصوَّر الجميع ، وهى من بينهم ، أن السائق سيمزِّق الشاب إرَبًا ، أو يحطِّم فكَّه بلكمة ساحقة على الأقل ، ولكن الشاب تحرَّك فى خِفَّة ، بحيث وجد السائق نفسه يهاجم الفراغ ، فاختلَّ توازُنه ، وتلقَّى فكُّه لكمة هائلة زلزلت كيانه ، فراح يترنَّح كالسِّكِّير قبل أن يَهْوِىَ الشاب على مؤخرة عنقه بلكمة أخرى ، أسقطته أرضًا ، عند قدمَىْ (سُميَّة) وأبيها ..

واتسعت عيون الجميع فى ذُهول ، وهم يحدِّقون فى وجه الشاب ، الذى اقترب من السائق فى حزم ، وجذبه من عنقه ، ليجبره على النهوض على قدميه ، ثم يكرِّر عبارته فى مزيد من الحزم والصرامة :

— اعتذر لهما .

تمتم السائق بعبارة إيطالية ، ولكن الشاب قال فى صرامة :

— بالإنجليزية .

فغمغم السائق بالإنجليزية :

— إننى أعتذر .

رفع الشاب عينيه إلى (سُميَّة) ، وهو يقول فى رِقَّة ، بدت لها عجيبة ، بعد كل ما رأته من عنف :

— أيكفيكِ هذا ؟

لم تجب بحرف واحد ، ولكن والدها هتف :

— نعم .. نعم .. إنه يكفى .

دفع الشاب السائق بعيدًا ، وهو يقول فى صرامة :

— انصرف .

قفز السائق داخل سيَّارته ، وانطلق بها بأقصى سرعة ، وكأنما لم يصدِّق بعد أنه قد نجا من قبضة الشاب ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، زادت من انبهار (سُميَّة) ..

لقد بدا لها المشهد كله أشبه بفيلم من رومانسيات العهد القديم ، التى تشاهدها باللونين الأبيض والأسود ..

بدا لها أشبه بروايات الماضى ، حينما كانت الرومانسية تمتزج بالمغامرات ، لتصنع قالبًا ساحرًا ، كثيرًا ما ذابت فى أحداثه ، وغابت مع أساطيره فى ليالى الصيف ، عندما تفتقد زميلاتها ..

ودون وَعْي منها ، راحت تقارن بين هذا الشاب ، وبين فرسان العصور الوُسْطَى ، الذين يحمل كل منهم سيفه ، ويمتطى جواده الأبيض ، ويقاتل الدنيا كلها من أجل حبيبته ..

وانتزعها صـوت أبيهـا من رحـلة خيالهـا ، وهو يقول بالإنجليزية :

ـ معذرةً يا سيِّدى .. إننا لم نقصد أبدًا أن نورِّطك فى مثل هذا الأمر السخيف ، و .....

قاطعه الشاب فى هدوء :

ـ لا عليك .. كان من الضرورى أن أفعل هذا

قال والدها فى انفعال :

ـ ليس ضروريًا بالقطع ، وإنما .....

تجمَّدت الكلمات فى حلقه بغتة ، واتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يحدِّق فى وجه الشاب ..

وفى البداية لم تنتبه (سُميَّة) إلى سرِّ دهشة أبيها ..

ثم انتبهت بغتة ..

وفاقت دهشتها دهشة أبيها ..

هذا لأن الشاب لم ينطق عبارته بالإنجليزية ..

ولا بالإيطالية ..

لقد نطقها بالعربية ..

وبلهجة مصرية خالصة ..

وبكل الدهشة فى أعماقه ، هتف والدها :

ـ مصرى ؟!

اختلج قلبها بين ضلوعها ، عندما أجاب الشاب فى بساطة ، وبلهجته المصرية :

ـ نعم .. هذا لم أحتمل رؤية أجنبى يسىء إلى مواطنى دولتى .

مدَّ الوالد يده يصافحه فى حرارة ، هاتفًا :

ـ هذه هى (مصر) والله .

ابتسم الشاب ، وأدار عينيه إلى (سُميَّة) ، مغمغمًا فى هدوء :

ـ نعم .. هذه هى (مصر) .

شعرت بحياء شديد ، وهو يتطلَّع إليها بعينيه الفاحصتين ، وخُيِّل إليها أن نظراته تنفذ إلى أعماقها ، وتَسْبُر غَوْرَها فى بطء وثقة ، فتمتمت فى حرج ، محاولة التغلُّب على خجلها :

ـ كيف يمكننا أن نشكرك ؟

لم يجب على الفور ..

مضت لحظات من الصمت ، وهو يواصل تفحُصها بعينيه النافذتين ، قبل أن يجيب فى هدوء وبساطة :

ــ لا دَاعِىَ .. لقد أسعدنى هذا .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وهو يستطرد :

ــ أسعدنى كثيرًا .

ثم مدَّ يده يصافح والدها ، قائلًا :

ــ أتعشَم ألا يُفسد هذا الحدث رحلتكما .

أجابه والدها مجاملًا :

ــ مقابلتك تعيد الأمور إلى نِصابها يا سيِّدى .

التفت الشاب إليها ، ومدَّ يده مصافحها ، قائلًا بابتسامته الهادئة الجذَّابة :

ــ أهذا رأيك أيضًا ؟

تردَّدت وهى تتطلَّع إلى كفِّه الممدودة فى قلق ..

كانت تخشى أن تلتقى أصابعهما ..

كانت تعلم أنه قد ترك تأثيره فيها بالفعل .

ثم شعرت بالخجل من تردُّدها ، ومدَّت كفُّها لتصافحه ..

وعندما التقى كفَّاهما ، صعقها تيار متدفِّق من العواطف ، سَرَى بين كفَّيهما كما تسرى النار فى الهشيم ..

والتهب قلبها بكل تلك الحرارة ..

وابتسم هو فى هدوء ، وبدا صوته عذبًا ، وهو يقول :

ــ ما زلت أنتظر جوابك ؟

غمغمت فى حَيْرة :

ــ أىّ جواب ؟

أطلق ضحكة بسيطة ، وقال :

ــ لا شىء .. إنه مجرَّد سؤال .

ارتفعت حُمرة الخجل إلى وجهها ، وأطرقت بعينيها حياءً ، فالتفت بسرعة إلى أبيها ، وقال وكأنه لم يسمع جوابها :

ــ أتمنَّى لكما إجازة سعيدة هنا .

وقبل أن ينبس أحدهما ببنتِ شَفَة ، كان قد ابتعد فى خطوات سريعة ، وهو يلوِّح لهما بكفِّه ..

وهتف والدها بعد ابتعاده :

ــ يا له من شاب !!

هتفت مَبْهورة :

ــ إنه أسطورة .

ضحك والدها ، وهو يقول :

ــ ليس إلى هذا الحدّ .

ارتفعت حُمرة الخجل إلى وجنتيها ، وهى تغمغم :
ـ إنها صيغة مبالغة فحسب .
ربَّت على كتفها ، مغمغمًا فى حنان :
ـ بالطبع .
وقفت إلى جوار أبيهـا ، ينتظران سيَّارة أجرة أخرى ، وعيناها تختلسان النظر إلى تلك البقعة ، التى غاب فيها الشاب ..
كانت تشعر برغبة عارمة فى رؤيته مرَّة أخرى ..
ولم يمكنها تفسير هذه الرَّغبة أبدًا ..
أنها لم تلتقِ به إلا منذ دقائق ، ولكنها تشعر بلهفة قويَّة لرؤيته ، كما لو كان حبيبها منذ القدم ..
وألقتها رغبتها هذه فى بحر من الخجل ، حجب عنها كل ما حولها ، حتى أنها بدت أشبه بالآلة ، وهى تستقل مع أبيها واحدة من سيَّارات الأجرة ، وتنتقل معه إلى الفندق المخصص لسكنهما ، فى قلب العاصمة الإيطالية ، والذى استأجرت لهما فيه إدارة المصنع جناحًا فخمًا ، لم تكد عينا (سُميَّة) تقعان عليه ، حتى هتفت :
ـ أبى .. هل سنقيم فى هذه الجنة ؟

ضحك فى سعادة لفرحتها ، وهو يقول :
ـ ألا نستحقها ؟
صاحت فى حماس :
ـ بل نستحق ما هو أفضل منها .
أطلقا معًا ضحكة مَرِحة ، ثم قال الوالد ، وهو يلقى جسده فوق أحد الفراشين فى الجناح :
ـ حمدًا لله .. لولا ذلك الشاب ، لبدأت رحلتنا هذه بداية غاية فى السُّوء .
ألقت جسدها على الفراش المجاور له ، وهى تقول :
ـ نعم .. لقد بدا ظهوره رائعًا ، و .....
بترت عبارتها فى خجل ، فضحك والدها ضحكة مُقتضبة ، وهو يقول :
ـ نعم .. لقد بدا كذلك .
ثم اعتدل هاتفًا :
ـ يا إلٰهى !!.. كيف فاتنا هذا ؟
اعتدلت بَدوْرِها ، قائلة :
ـ ما الذى فاتنا ؟
أجابها فى أسف :

ـــ إننا لم نسأله حتى عن اسمه أو عنوانه .
هالها أن تنتبه إلى ذلك ..
لقد بدا لها الأمر كله كالأسطورة ..
حتى فى غموضه ..
لقد ظهر الفارس بغتة ، وأنقذها ، واختفى ..
ظهر من قلب المجهول ، وغاص فى أعمق أعماقه ..
تمامًا كالأساطير ..
وبكل ما يملأ نفسها من خيبة أمل ، غمغمت :
ـــ للأسف !!
ثم عادت تستلقى على فراشها ، متابعة :
ـــ ياللخسارة !!
راح والدها يقصُّ ما حدث ، وكأنما لم تكن معه لحظتها ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة ، وأسبلت جفنيها ، وراحت تستمع إليه فى تلذُّذ ..
وتسلَّل النوم إلى جفنيها ناعمًا ، آسرًا ..
وراحت فى نوم عميق ..
وفى نومها راحت مشاعرها تنطلق بلا قيود ..
وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة ناعسة رقيقة ..

وانطلقت أحلامها بلا حدود ..
ودارت كل الأحلام حول نقطة واحدة .
حول الفارس ..
فارس أحلامها المجهول ..

* * *



٣ ـ اللِّقـاء ..

كانت هناك أميرة جميلة ، ذات شعر أسود ناعم ، وعيون فى لون الفحم المبتلّ ، وشفاه تذوب فى دفئها القلوب ..

وكانت هناك سفينة كبيرة ، تفرد كل أشرعتها ، وتمخر عُباب البحر شامخة ..

ثم ظهرت سفينة القراصنة ..

وبدأت المعركة ..

القراصنة ينتصرون ، ويقضون على حرّاس الأميرة ، فى محاولة للوصول إليها وسَبْيِها ، و .....

وفجأة ، ظهر الفارس ..

ظهر حاملًا سيفه .. مقاتلًا من أجلها ..

وسقط القراصنة مع ضربات سيفه ..

وتراجعوا أمام بطولته ..

وأخيرًا ، انتصر عليهم جميعًا ، ثم التفت إليها ، وابتسامته العذبة تملأ وجهه ..

واقترب منها ..

وضمّها إلى صدره ..

وذابت عيناه فى عينيها ..

وانحنى نحوها ..

و ...

استيقظت ..

لم تشعر فى حياتها كلها بالأسف على حُلْم ، كما شعرت هذا الصباح ، على الرغم من أن عينيها قد وقعتا على أثاث الجناح الفاخر ، وتحفه الثمينة ..

وتثاءبت فى ضيق ..

لقد قضت ليلتها كلها تحلُم به ، كأنما قد ذابت فى هَواه ، دون أن تعرف حتى اسمه أو هُوِيَّته ..

تمامًا مثلما يحدث فى الروايات ..

الحبُّ من أوَّل نظرة ..

إنها لم تؤمن أبدًا بوجود مثل هذا الحُبّ ..

لم تقنع أبدًا ، على الرغم من استغراقها فى قراءة الروايات العاطفية ، بحدوث أى نوع من الارتباط ، من النظرة الأولى ..

ولا حتى من اللِّقاء الأوَّل ..

إن عقلها يؤمن دَوْمًا بأن الحُبَّ القوىّ يأتى بطيئًا ، ويتسلَّل إلى القلب حانيًا ، فيملك شغافه رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، ويُوَطِّد نفسه

فى ثناياه ، ويذُوب مع الدم فى خلاياه ، حتى يصبح انفصال بعضهما عن البعض مستحيلًا ..

وعلى الرغم من ذلك ، فها هى ذى لا تملك دفع صورة الشاب من عقلها ..

لماذا ؟..

لماذا سيطر على وجدانها إلى هذا الحدّ ؟

ألأنه صنع صورة واقعيّة لما تحلُم به منذ زمن ؟!

ألأنه يشبه بوسامته وقوّته وحزمه أبطال الروايات ؟

أهو فارس أحلامها حقًّا ؟!

لم يكن هناك تفسير آخر ..

ولم يكن هناك داعٍ للبحث عن تفسير ..

إنه يجذبها فحسب ..

وهذا يكفى ..

وفى نشاط وسعادة ، غادرت فراشها ، وراحت تدور فى أنحاء الجناح كفراشة رقيقة ، فتضيف لمسة هنا ، ولمسة هناك ، كأنما هى فى منزلها الخاصّ ، ثم أيقظت والدها بقُبلة على جبينه ، وهى تقول :

ـ هيًا .. حان موعد الاستيقاظ .. لسنا هنا لننام .

فتح والدها عينيه ، وابتسم وهو يغمغم :

ـ أنت على حقّ .

لم تمضِ نصف الساعة ، حتى كانا يتناولان إفطارهما فى مطعم الفندق ، وهى تقول فى حماس :

ـ سأبذل قُصَارَى جُهْدِى للاستمتاع بكل دقيقة نقضيها هنا .

ابتسم والدها ، وهو يقول :

ـ سيكون عليك إذن أن تفعلى ذلك وحدك ، فأنا مرتبط بجدول عمل شديد التعقيد ، سيبدأ تنفيذه بعد ساعة واحدة .

هتفت فى استنكار :

ـ أيّة إجازة هذه ؟

ربَّت على كتفها ، وهو يغمغم :

ـ أتظنِّين أن (ماجد بك) أرسلنى هنا للتنزُّه والاستمتاع ؟

هتفت فى غضب :

ـ كان ينبغى أن يكون هذا جزءًا من الرحلة ؟

ابتسم فى حرج ، مغمغمًا :

ـ ليس فى أعمال القطاع الخاصّ يا بنيّتى .. إن

(ماجد بك) لا يدفع قرشا واحدًا ، دون أن يضمن ألف قرش فى مقابله ، وهو يعلم أن عملى يحتاج إلى ستة أيام فحسب ؛ لذا فقد منحنى هذه الأيام الستة فقط ، ولتعلمى أنه سيعاقبنى فى صرامة وقسوة ، لو أننى أضفت إليها يومًا سابعًا .

قالت فى جِدَّة :

ـ إنه نوع من التعنُّت .

هزَّ كتفيه ، مغمغمًا :

ـ بل هى سياسة كل الرأسماليين .

ثم نهض مستطردًا :

ـ وسنحاول معًا تطوير هذه السياسة ، بحيث أعمل أنا ، وتحصلين أنت على المتعة .

غمغمت فى ضيق :

ـ ليس هذا عدلًا .

انحنى يقبِّل وجنتها ، قائلًا فى حنان :

ـ سأقبل هذا .

واعتدل ليفرغ كل مايحمله من ليرات إيطالية أمامها ، مستطردًا بابتسامة أبويَّة :

ـ لن أحتاج إلى نقود كثيرة ، فستقلُّنى سيَّارة شركة (أنطونيانى) يوميًا ، ولست أحتاج إلى أيَّة نفقات ، و .....

قاطعته معترضة :

ـ لا .. لن أقبل هذا .

ثم التقطت بعض اللِّيرات ، مستطردةً فى حزم :

ـ سنقسِّم المبلغ بالعدل .

ضحك قائلًا :

ـ لن يكون اقتسام المبلغ عدلًا ، فأنا لن أرسل بطاقات سياحية إلى أصدقائى ، ولن يسيل لُعابى أمام واجهات متاجر الثياب .. أليس كذلك ؟

تطلَّعت إليه فى امتنان ، ثم نهضت تقبِّله ، وتقول فى حرارة :

ـ أبى .. أنت بالنسبة إلىَّ أكثر ثراءً من (ماجد عثمان) بكل مصانعه .

ضمَّها إلى صدره فى حنان ، وهو يقول فى سعادة :

ـ قولك هذا يجعلنى بالفعل أكثر ثراءً منه .

وربَّت على كتفها ، ثم ابتعد هاتفًا :

ـ لا تبتعدى كثيرًا .

هتفت مبتسمة :

ـ اطمئنّ .

تابعته ببصرها حتى غاب عن عينيها ، ثم أطلقت من أعمق أعماق صدرها تنهيدة حارَّة ، قبل أن تغمغم :

ـــ كم أحبُك يا أبى .

ثم دسَّت اللّيرات فى جيبهـا ، ونهضت تغـادر الفنـدق بدَوْرِهَا ..

كان أوَّل ما فعلته هو أن ابتاعت دستة من أفخر البطاقات السياحية ، وأرسلتها إلى أمِّهَا وكل صديقاتها فى (مصر) ، ثم راحت تُجَوِّل فى الطرقات المحيطة بالفندق ، وتتوقَّف طويلًا أمام واجهات متاجر الثياب ؛ ليسيل لُعابها بالفعل أمام الثياب الأنيقة الفاخرة ، ثم يعود ليجف مع قراءة أسعارها ، التى يتجاوز أقلُّها كل ما تحمله فى جيبها ..

ومرَّة أخرى أدركت أنها ليس ثريَّة ..

لو أن واحـدة من زميلاتها جوَّلت فى هـذا المكان ، لأنفقت ـــ فى بساطة ـــ عشرة أضعاف ما تملكه هى ، دون أن يثير فيها هذا ذَرَّة من القَلَق ..

أمَّا هى ، فكان ينبغى لها أن تكتفى بالمشاهدة ..

واستغرقها التفكير ، وابتلعتها المشاهدة ، حتى فوجئت بأنها لم تعُد تدرى أين هى بالضبط ..

لقد حَرَصت فى البداية على تحديد مسارها واتجاهاتها ، إلَّا أنها لم تلبث أن اندمجت بالأمر ، حتى تناست أن تفعل ذلك ..

وانتابها الفزع ، وهى تنتقل من شارع إلى شارع ، دون أن تجد سبيلها إلى طريق معروف ..

وتوقَّفت وهى ترتجف كريشة فى مهبِّ الريح ..

وبكى قلبها فى لَوْعة وخَوْف ..

ثم انتقلت دموع قلبها إلى عينيها ..

وبكت ..

بكت فى حرارة ، وهى تشعـر بالضَّياع ، وسـط مدينـة تجهلها ، وقوم تفتقد حتى لغة الحوار معهم ..

وانتفض جسدها فى قوَّة ، عندما شعرت بيد توضع على كتفها فى رِفْق ، وسمعت صوتًا يقول فى هدوء :

ـــ جفِّفى دُموعك .. أنا هنا .

لم تصدِّق أُذنيها فى البداية ، ثم التفتت بكيانها كله إلى مصدر الصوت ..

ورأته ..

رأت فارسها ..

* * *

٤ ـ الحُلْم ..

مضت لحظات وهى تحدّق فى وجهه الوسيم ، وابتسامته الهادئة ، التى حملت لَمْحة من الحنان والإشفاق ، وهو يتطلّع إلى وجهها ، ويتمتم فى لهجة أكثر دفئًا من كل ينابيع العالَم الحارّة :

ـ لا تبكى أبدًا .. كل الدنيا لا تساوى دمعة واحدة من دموعك اللُّؤلؤيّة .

لم تنبس ببنتِ شَفَة ..

تُخيّل إليها أنها ما زالت تعيش حُلْمًا ..

مستحيل أن يكون أمامها الآن !!..

مستحيل أن يكون حقًّا كالفارس الأسطورىّ ، الذى يظهر دَوْمًا ، كلما احتاجت الأميرة إليه !..

مستحيل !..

إنه حُلم ..

حَتمًا هو كذلك ..

ولكنها تسمع صوته واضحًا ..

وتراه أمامها ..

وتشعر بكفِّه على كتفها ..

إنه حقيقة ..

وفى هدوء ، تابع هو قوله :

ـ ما الذى يبكيك ؟.. هل ضَللْت طريقك ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، فابتسم فى حنان ، مغمغمًا :

ـ لا عَليْكِ .. أنا أحفظ كل الطرق هنا .. أين تقيمين ؟

أخبرته اسم الفندق فى صوت خفيض ، فاتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ يا إلٰهى !!.. إنك تقفين خلفه تمامًا .

ثم أمسك كفَّها فى بساطة ، وأسلمت هى قيادتها له ، وهو يسير معها عَبْر شارع جانبىّ ضيِّق ، انتهى بهما إلى الفندق ، ثم ترك كفَّها ، والتفت إليها ، قائلًا فى إشفاق :

ـ فى المرّة القادمة لا تبتعدى كثيرًا .

أومأت برأسها إيجابًا ، دون أن تنطق بحرف واحد ، وهى تحدّق فى وجهه مبهورة مشدُوهة ، فربَّت على كتفها ، مغمغمًا :

ـ إلى اللقاء .. بلِّغى سلامى لوالدك .

تسمَّرت فى مكانها كتمثال من المرمر الوردىّ ، وهى تتابعه

بصرها يبتعد ، ويغيب وسط الزحام ، ثم ارتفعت حرارة قلبها بغتة ، وانتقلت إلى أطرافها فانتفضت ، ووجدت نفسها تهتف :

ـ مهلًا إننى لم أسألك عن اسمك بعد ..

التفت إليها بعض المارة ، وابتسموا ، دون أن يفهم أحدهم كلمة واحدة من عبارتها العربية ، فارتفعت دماء الخجل إلى وجنتيها ، وتمتمت :

ـ لم أعرف بعدُ مَنْ أنت .

خامرها شعور قوىّ بالندم ؛ لأنها لم تسأله عن نفسه ، فى ذلك اللقاء ، الذى بدا كَحُلْم قصير جميل ، لم يمنحها حتى ما يكفى من الوقت لتذوُّقه ، قبل أن تستيقظ منه لتواجه الواقع ..

وفى لهفة راحت عيناها تبحثان عنه وسط الزحام ..

ولكن عبثًا .

لقد اختفى ..

مرّة أخرى كالأساطير ، ظهر واختفى ..

كالحُلْم ، نما وذاب ..

كفقّاعة جميلة ، خلبت الألباب ، قبل أن تنفجر وتتلاشى ..

وفى أسف ، عادت إلى فندقها ، وصعِدت إلى جناحها ، وألقت جسدها فوق فراشها ..

لم تعُد تشعر برغبة فى التنزُّه ..

لقد خلب فارسها الغامض لُبَّها ، واستحوذ على كل مشاعرها ..

وراحت تبحث له عن اسم ، وسط عشرات ومئات الأسماء ..

ولَمْ يَرُقْ لها اسم واحد ..

كان خيالها الرومانسىّ يفضّل أن يجعله مجهولًا ..

غامضًا ..

آسرًا ..

وتراخى جفناها مع استغراقها فى التفكير ، ثم راحت فى نوم عميق ، وهى تحمل على شفتيها ابتسامة سعيدة رقيقة ..

وحتى فى حُلْمها رأته ..

رأته فارسًا ، يمتطى جوادًا أبيض ، ويلقى إليها زهرة حمراء ، التقطتها فى سعادة ولهفة ، وقبّلتها ، ثم أعادتها إليه ، فانحنى يطبع على الأوراق الحمراء قُبْلَة حُبّ ، حاول أن يجعلها تنطبق على موضع ملامسة شفتيها لها ، ثم مدَّ يده إليها ، وحملها على صهْوَة

جواده الأبيض ، وضمَّها إلى صدره ، وانطلق بها نحو جَنَّة الحُبّ .

وكان حُلمًا جميلًا ، لم توقظها منه إلا لمسة رقيقة من أصابع والدها لوجنتها ، مع صوته الحنون ، وهو يقول :

ــ لم نأتِ إلى هنا لننام .. أليست هذه عبارتك ؟

فتحت عينيها تتطلَّع إلى والدها ، وتبتسم مغمغمة :

ــ صدقت .

ثم نهضت متمتمة :

ــ لست أدرى كيف هزمنى النوم ؟

ضحك قائلًا :

ــ لا ريب أنك قد شاهدت كل متاجر الثياب هنا .

ضحكت قائلة :

ــ تقريبًا .

ثم سألته فى اهتمام :

ــ هل أنجزت عملك على نحو جيِّد ؟

أجابها مبتسمًا :

ــ للغاية .

ثم جلس إلى جوارها ، على طرف الفراش ، مضيفًا :

ــ ولقد اتصلت بأُمّك هاتفيًا ، وهى ترسل إليك أطيب سلام .

هتفت فى حرارة :

ــ إننى ألتهب شوْقًا لرؤيتها .

تنحنح فى حرج ، وقال :

ــ يبدو أنك لن تنتظرى طويلًا لإطفاء شوقك إليها .

هتفت فى دهشة :

ــ ماذا تَعْنِى ؟

أشاح بوجهه ، وكأنما يخجل من التطلُّع إليها ، وهو يجيب :

ــ يبدو أنك ستدفعين هذه المرَّة ثمن حماسى ، وتفوُّق فى عملى .

خَفَقَ قلبها فى قوَّة ، وهى تقول مرَّة أخرى :

ــ ماذا تَعْنِى ؟

تنهَّد فى عمق ، وهو يجيب فى حرج :

ــ لقد تصوَّرت أننى قد حقَّقت إنجازًا رائعًا ، عندما حصلت فى لقائى الأوَّل مع مسئول مصانع (أنطونيالى) ، على عقد أفضل مما كنَّا ننتظر الحصول عليه ، بعد أسبوع كامل ، فأسرعت أتصل بـ(ماجد بك) ، وأبلغه بالأمر ..

تنهَّد مرَّة أخرى ، فغمغمت فى صوت مرتجف :

ــ ثم ماذا ؟

مطَّ شفتيه ، وقال فى أسف :

ـ ثم تحقَّقت نظريتى عن الرأسماليِّين ، فلم يكد (ماجد بك) يعلم أننى قد أنجزت العمل ، حتى طالبنى بالعَوْدة على أوَّل طائرة إلى (القاهرة) ، و .....

قفزتْ من مكانها ، وهى تهتف فى سُخْط :

ـ ماذا ؟.. أتعْنِى أننا سنعود إلى (القاهرة) ؟.

أومأ برأسه إيجابًا ، وغمغم فى حزن :

ـ للأسف .. سنفعل ذلك فى السادسة من صباح الغد .

صاحت فى حَنَق :

ـ ليس هذا عدلًا .

بدت نبرات أبيها أشبه بأنين جريح ، وهو يقول :

ـ لم أكُنْ أتمنَّى ذلك ، ولكننى لست أملك مخالفة الأوامر والتعليمات ، ولو أننى أكثر ثراءً ما .. ما .....

ارتجفت الكلمات على شفتيه ، وترقرقت دمعة حزن فى عينيه ، انفطر لها قلبها ، فاندفعت نحو والدها ، وطوَّقت عنقه بذراعيها ، وراحت تغمر وجهه بقُبلاتها ، هاتفة فى حرارة :

ـ أنت أكثر ثراءً يا أبى .. أنت أعظم أب فى الدنيا .. إنها ليست نهاية العالم .. يكفينى أن أرسلت بطاقات البريد إلى صديقاتى ، وأننى قد صحبتك إلى هنا ، والتقيت بـ.....

أمسكت لسانها فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن تقول إنها قد التقت بفارس أحلامها ، واحتضنت والدها فى قوَّة ، وكأنما تدفن فى صدره انفعالاتها ، قبل أن تستطرد ، بعد لحظة من الصمت :

ـ لقد تحقَّق حُلْمى على أيَّة حال .

مسح والدها على رأسها فى حنان ، مغمغمًا :

ـ كنت أتمنَّى أن .....

هتفت مقاطعة :

ـ لقد منحتنى أفضل ما يمكنك .

ابتسم مغمغمًا فى حنان :

ـ على أيَّة حال ، لم تكن إقامتنا ستضيف إليه جديدا ، فلا ريب أنك قد أنفقت كل ما لدينا ، لشراء ذلك الثوب الفاخر .

تراجعت فى دهشة ، وهى تغمغم :

ـ الثوب الفاخر ؟!.. أىّ ثوب فاخر ؟

أشار إلى علبة أنيقة فوق فراشه ، وهو يقول فى حَيْرة :

ـ ذلك الثوب .. لقد أعطونى إيَّاه فى الاستقبال ، وأبلغونى أنه يخصُّك .

هتفت فى دهشة ، وهى تندفع نحو العُلْبة :
ــ يخصُّنى أنا ؟
فتحت العُلْبة فى لهفة ، وأطلقت شهقة قويَّة ، تجمع ما بين الدَّهشة والإعجاب ، وهى تحدّق فى ذلك الثوب السماوىّ الرقيق ، الذى يستقر داخل العُلْبة ، قبل أن يغمغم والدها فى حَيْرَة :
ــ ولكن لا مجال للخطإ .. العُلْبة تحمل اسمك ، و .....
قاطعته وهى تختطف الثوب ، وتسرع إلى المرآة ، هاتفة :
ــ يا له من ثوب !.. إنه ناعم كالحرير .. بل هو من الحرير بالفعل .. يا إلهى!!.. إنها أوَّل مرَّة أرتدى فيها ثوبًا من الحرير الطبيعىّ .. انظر يا أبى إنه يبدو رائعًا .. سيثير حسد الجميع .
غمغم والدها فى قلق :
ــ مهلًا يا (سُميَّة) .. ينبغى أن نعرف أوَّلًا مَنْ صاحب الثوب .
هتفت فى لهفة :
ــ ألَمْ تقُل إنه يحمل اسمى ؟
قال فى حزم :
ــ ينبغى أن نعرف من أرسله على الأقل .

قفزت إلى رأسها إجابة جميلة ، ارتاح لها قلبها ، وزَغْرَدَت لها رومانسيَّتها الحالمة ، إلَّا أنها خشيت أن تلقى بها على لسانها ، وهى تغمغم :
ــ لست أدْرِى مَنْ ..
انحنى والدها يفحص العُلبة الأنيقة ، ثم هتف وهو يلتقط من داخلها شيئًا :
ــ هناك بطاقة .
ألهب القول مشاعرها ، فهتفت :
ــ باسم مَنْ ؟
هزَّ رأسه فى حَيْرة ، مغمغمًا :
ــ إنها لا تحمل اسمًا ، فقط عبارة تقول : « إلى الملاك التائه ، حتى لا يضل طريقه مرَّة أخرى إلى الجنَّة » .. ما هذا ؟
لم تجب ، ولكنها فهمت ..
فهمت أن هذا الثوب هدية منه ..
من فارس أحلامها ..
فارس الأحلام المجهول ..

* * *

٥ ــ العَوْدة ..

تهلّلت أسارير الأمّ ، وهى تستقبل ابنتها وزوجها بفرحة غامرة ، وتضمّ الأولى إلى صدرها ، هاتفة فى حبٍّ وحنان :

ــ يا إلٰهى !!.. لم أتصوَّر أبدًا أن الله (سبحانه وتعالى) سيستجيب لدعائى بهذه السرعة !!.. لقد دعوته أن أراك فى أسرع وقت .

ضحكت (سُميَّة) ، وهى تقول :

ــ إذن فأنت المسئولة عمّا حدث .

نقلت ضحكتها الصافية إلى أُمّهَا ارتياحًا عارمًا ، وقد خشيت طويلًا أن تسبِّب تلك العودة المبكِّرة لابنتها إحباطًا ويأسًا ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة حملت ارتياحها ، وهى تغمغم :

ــ لست إلٰهة يا بنيَّتى .

هتفت (سُميَّة) :

ــ مَنْ قال هذا ؟

ثم انحنت على وجنة أُمّها ، وأودعتها قُبلة امتنان ، قبل أن تستطرد :

ــ أنت إلٰهة الحنان والحُبّ .

أطلقت الأم ضحكة سعيدة ، والتفتت إلى الأب ، وهى تضمّ ابنتها إلى صدرها ، قائلة :

ــ هل نجحت فى مهمَّتك ؟

ابتسم ابتسامة رصينة ، وهو يقول :

ــ وهل أعادنا إلّا هذا ؟

أومأت برأسها متفهِّمة ، وهى تقول :

ــ ليس كل ما يتمنّاه المرء يدركه .

غمغم فى استسلام :

ــ صدَقْتِ .

ابتسمت الأم فى مودَّة ، ثم عادت تلتفت إلى ابنتها ، وتسألها فى حنان :

ــ هيَّا .. أخبرينى كيف كانت رحلتك البالغة الصِّغر ؟

هتفت ابنتها فى حماس ، بعكس ما توقَّعت هى :

ــ كانت رائعة .

ــ ثم أضافت بنفس الحماس ، وهى تلوِّح بكفِّها :

ـ لقد تشاجرنا ـ أنا وأبى ـ فوْر وصولنا إلى هناك ، مع سائق سيارة أجرة .

تراجعت الأم فى حِدَّة ، وهى تهتف فى جَزَع :

ـ تشاجرتما ؟!

ثم رَمَقَتْ ابنتها بنظرة عِتاب ، مستطردة :

ـ أهذا يجعلها رحلة رائعة ؟!

تنحنح الوالد فى حرج كعادته ، فى حين أطلقت (سُميَّة) ضحكة بسيطة ، وهى تجيب :

ـ كلَّا بالطبع .. لقد بدا لنا ذلك وكأنه أسوأ شىء فى الدنيا ، لولا أن ظهر ذلك الشاب .

ألقت الأم على الأب نظرة حائرة ، وغمغمت :

ـ شاب ؟!

أطلقت (سُميَّة) ضحكة صافية أخرى ، وقالت :

ـ نعم يا أمَّاه ، شاب مصرىّ رائع .. لقد هاجم السائق ، ولكَمَهُ ، وأجبره على الاعتذار لنا ، و .....

قاطعتها الأم فى جَزَع :

ـ ماذا فعلتما ؟.. هل غُدتُما لإنجاز والدك العمل ، أم لأنهم قد طردوكما من (إيطاليا) لإثارة الشَّغب ؟

ضحك الوالد ، قائلًا :

ـ ليس إلى هذا الحدّ .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى لهجة ، بدت وكأنها لا تنتمى إلى سابق حديثه :

ـ لقد أهدى لـ (سميَّة) ثوبًا أنيقًا .

تمتمت الأم ، وقد تضاعفت حَيْرتها .

ـ أهداها ثوبًا ؟!

ثم لوَّحت بكفِّها ، هاتفة :

ـ أقسِم إننى لم أعُد أدرى شيئًا عمَّا فعلتماه هناك .

أطلق الوالد ضحكة أخرى ، وقال :

ـ سأخبرك أنا القصة كلها .. إن هذا الشاب .....

لم تستمع (سُميَّة) لوالدها ، وهو يسرِد القصة على مسامع أمّها ..

لقد سبحت مع ذكرياتها وأحلامها ..

وراحت تسترجع صورة الشاب فى ذهنها ..

إنه وسيم الملامح ، ممشوق القوام ، قوىّ البِنْية ، أسود العينين ، فاحم الشعر ، ناعمه .. حليق ..

وهو قوىّ ..

جرىء ..
غامض ..
أروع ما فيه هو هذه الصفة الأخيرة ..
الغموض ..
إنها تمنحه رَوْنق أبطال الأساطير ..
ومن العجيب أن تشعر نحوه بكل هذا الانبهار ، وهى تجهل عنه كل شىء ..
حتى اسمه ..
« (سميَّة) .. أين ذهبت ؟.. »..
انتفضت فى دهشة ، عندما تسلَّلت إلى مسامعها هذه العبارة ، بصوت الأمّ الحنون ، فهتفت وقد أفاقت من أحلامها :
ــ أنا ؟!
ربَّتت الأم على رأسها ، مغمغمة :
ــ لا عليك .. لا ريب أنك مرهقة من السفر .
تمتمت فى حياء :
ــ نعم .. يبدو هذا .
ثم أسرعت إلى حجرتها ، وقلبها يخفق فى عُنف ..

وهناك تركت العِنان لأحلامها مرَّة أخرى ..
وفى هذه المرَّة راحت تقارن بين ذلك الشاب ، وبين فرسان كل الروايات التى قرأتها ..
إنه أشبه بـ(دراتنيان) ، فى رواية (الفرسان الثلاثة) ، و (إكسندر دوماس) ..
بل هو (أرمان دى فال) ، فى (غادة الكاميليا) ..
لا .. إنه يشبه الفرسان ..
أو ...
لا .. إنها لا تجد له شبيهًا فى ذاكرتها ..
أو أنه يشبه كل من عاشت معهم فى عالَم الخيال ، من الفرسان والأبطال ..
يشبههم كلهم ؛ لأنه فارس ..
ولأنه بطل ..
شعرت فجأة بالخجل ؛ لأنها تفكِّر فيه طِيلة الوقت ، وحاولت أن تبعد ذهنها عنه ، فراحت تراجع موقفها مع زميلاتها ..
ماذا ستخبرهن عن هذه الرحلة القصيرة ؟..
لا ريب أن البطاقات السياحية التى أرسلتها لهنَّ ستصلهنَّ

بعد أيام ، فهل تدَّعى أنها قد لبثت فى (روما) طويلًا ، وتعتكف طِيلة هذه الفترة فى منزلها ؟

لا .. لن يفلح هذا الأسلوب ؛ لأن ابنة (ماجد عثمان) إحدى صديقاتها ، وهى ستعلم كل الحقائق من والدها حتمًا ..

هل تبلغهن عن فارسها إذن ؟..

بالتأكيد لن يصدِّقها إحداهنَّ ؛ لأنها ليست من هُواة صنع الصداقات مع الجنس الآخر ..

ولأن شابًا مثل هذا يبدو أقرب إلى كِذْبة كبيرة ..

أو خيال خِصْب ..

إذن سترتدى ذلك الثوب الفاخر ، الذى أهداه إليها ، عندما تذهب إلى النادى ..

نعم .. إنها ستبدو فاتنة فى هذا الثوب ..

لقد ارتدته فى جناح الفندق ، ورأت نفسها فيه باهرة الحسن ..

ستتباهى بجمالها ، ما دامت لا تملك سواه ..

لم تطق صبرًا على الفكرة ، فقفزت من فراشها ، وارتدت ذلك الثوب السماوىّ ..

وكانت حقًّا فاتنة ..

منحها الثوب مزيدًا من البهاء ، ومنحت هى الثوب جمالًا يفُوق جماله ..

وفى سعادة غادرت حجرتها ، فهتفت بها أُمّها فى دهشة :

ــ إلى أين ؟.. ولِمَ كل هذه الأناقة ؟

أجابتها فى حماس :

ــ إلى النادى .

غمغمت والدتها فى حَيْرة بالغة :

ــ النادى ؟!.. ولكنك لا تذهبين إليه أبدًا !!

ضايقها أن تذكر والدتها ذلك ..

إنها حقًّا لا تميل إلى الذهاب إلى النادى ، حيث صديقاتها عادةً ، وليس هذا لأنها لا تميل إلى مجتمع النادى ، ولكن لأنهم هناك يتعاملون بمستوى مادىّ تعجز عن ملاحقته ، مما يعمِّق فى وجدانها ذلك الشعور بالفقر والعجز ، ويدفعها دفعًا إلى تفادى الوقوع فيه ..

أمَّا اليوم فهى تملك ما تتباهى به ، وتتفاخر بارتدائه ..

لهذا ستذهب ..

وفى حِدَّة ، هتفت :

ــ سألتقى بزميلاتى هناك .

نقَلَت الأمّ بصرها إلى الثوب ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية ، وهى تغمغم :

ـ لقد فهمت .

سألت أمها فى حماس :

ـ أخبرينى يا أمّى .. هل أبدو جميلة ؟

هتفت الأمّ :

ـ بل فاتنة .

تهلّلت أسارير (سُميّة) ، وقالت فى امتنان :

ـ ألَمْ أقُلْ لك ، إنك أفضل أمّ فى العالَم .

ثم أسرعت تغادر المنزل ، وهى تلوّح بكفّها ، هاتفة :

ـ لن أتأخر كثيرًا ..

وبدت لها تلك المسافة القصيرة ، التى استغرقتها سيّارة الأجرة ؛ لتنقلها إلى النادى ، أشبه بالدهر ، ولم تكد تصل إلى هناك ، حتى اندفعت تبحث عن صديقاتها فى لهفة ، حتى وقع بصرها عليهن ، وهن يجمعن حول مائدة خاصّة فى الحديقة ، وقد بدت ثيابهن أشبه بكرنفال من الثراء والموضات الحديثة ، التى يندُر تواجدها حتى فى بلدة منشئها ..

وعندما اندفعت نحوهُنَّ ، كانت (هالة) ، ابنة (ماجد عثمان) أوّل من لمحتها ، فهتفت فى دهشة :

ـ (سُميّة) ؟!.. يا للمفاجأة !

رُحن جميعًا يصافحنها فى حرارة ، وهُنَّ يبدين دهشتهن لرؤيتها فى النادى ، ولعودتها المبكّرة من رحلتها ، وهتفت إحداهن :

ـ يا له من ثوب رائع يا (سُميّة) !! إنه يبدو كما لو أنه قد صنع خِصّيصًا لك .

تمتمت فى مزيج من الحياء والسعادة .

ـ نعم .. إنه .....

قاطعها صوت (هالة) فى سُخرية :

ـ إنه هديّة ولا شك .

احتقن وجه (سُميّة) ، وخُيّل إليها أن (هالة) قد صفعتها فجأة على وجهها ، وهى تتمتم فى ارتباك وخجل :

ـ كيف عرفت ؟

ارتسمت على شفتىْ (هالة) ابتسامة ظافرة ، ساخرة ، شامتة ، وهى تقول فى استهزاء :

ـ الأمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير ، فلقد شاهدت هذا الثوب فى (روما) ، منذ شهر واحد ، وأعلم أن ثمنه يفوق مرتب والدك فى عام كامل .

انكمشت (سُميَّة) فى مقعدها ، وبدا لها أن (هالة) قد حطَّمتها بضربة واحدة ساحقة ، حتى أنها لم تجرؤ على التفوُّه بحرف واحد ، وهذه الأخيرة تستطرد ، بنفس الشماتة الساخرة :

ـ وحتى المبلغ الذى حصل عليه والدك من أبى ، كمصاريف لرحلته ، لايكفى لشرائه .

تمتمت (سُميَّة) ، وهى تقاوم رغبتها فى البكاء فى صعوبة :

ـ نعم .. إنه هديَّة .

التفتت (هالة) إلى زميلاتها بابتسامة ظافرة ، وكأنها تقول لهُنَّ :

ـ أرأيتن ؟.. ألَمْ أقُلْ لكُنَّ ؟

ولكن زميلتها (ميرفت) رمقتها بنظرة غاضبة ، وهى تقول فى نبرة أشبه بالتحدِّى :

ـ كَوْنُه هدية يرفع من قيمته كثيرًا .

تمتمت (هالة) فى سخرية :

ـ حقًّا ؟!

أجابتها (ميرفت) فى استفزاز :

ـ بالطبع ، فالهديَّة تعْنِى أن مَنْ أعطاها يقدِّر من حصل

عليها ، وبالنسبة لـ(سُميَّة) أراهنكُنَّ أنها قد حصلت على الثوب من رجل أذابه جمال عينيها ، وفتنتها .

تمتمت (سُميَّة) :

ـ شكرًا .

أمَّا (هالة) فقد أطلقت ضحكة ساخرة ، وقالت :

ـ رجل معجب ؟!.. ومع (سُميَّة) ؟.. ياله من سُخف !!

شعرت (سُميَّة) أن العبارة تطعن أنوثتها ، فهبَّت تقول :

ـ ولكننى حصلت عليه كهديَّة من شاب بالفعل .

قالت (هالة) فى سُخرية :

ـ شاب إيطالى ؟!..

هتفت (سُميَّة) فى توتُّر :

ـ بل مصرى .

أطلقت ضحكة ساخرة أخرى ، وقالت :

ـ شاب مصرى فى (إيطاليا) ؟.. وبعد يوم واحد ؟!.. يا لها من قصة !.. وما اسم هذا الشاب إذن ؟

وقبل أن تنبس (سُميَّة) ببنتِ شَفَة ، ارتفع من خلفها صوت هادئ مألوف ، يقول :

ــ أنا .

وعندما التفتت فى دهشة ، خَفَقَ قلبها فى عنف ، لقد وقعت عيناها عليه ..

على الفارس ..

* * *



٦ ــ وسط السحاب ..

« اسمى (شريف) .. (شريف وجدى) » ..

نطقها الشاب بلهجته الهادئة ، وابتسامته الجذَّابة ، فتعلَّقت به أنظار الفتيات فى انبهار وصمت ، قبل أن تهتف (سُميَّة) مشدُوهة :

ــ من أين أتيت ؟

اتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

ــ من (إيطاليا) .. لم أحتمل البقاء فيها بعد عودتك إلى هنا .

شهقت إحدى الفتيات ، وحدَّقت الأخرى فى وجه (شريف) الوسيم مبهُورة ، وعقدت (هالة) حاجبيها فى غَيْرة ، فى حين تضرَّج وجه (سُميَّة) بحُمرة الخجل ، وهى تتمتم فى حياء :

ــ عودتى أنا .

أجابها فى بساطة :

ــ بالطبع .. لقد أصبح عالمى كله هو أنت .

كان يغازلها بأسلوب واضح مباشر ، أورثها مزيجًا من الخجل والزَّهو والسعادة ، وهى تجلس وسط زميلاتها ، وبدا لها (شريف) فى هذه اللحظة ، أشبه مايكون بالفارس المِغوار ، الذى جاء لاختطافها على صهوة جواده الأبيض ..

ولم تحتمل (هالة) ذلك الشعور بالغَيْرة ، فهتفت :

ـ أأنت صديق لـ (سُميَّة) ؟

أجاب دون أن يلتفت إليها :

ـ هذا هو أملى الوحيد .

انعقد حاجباها فى حَنَق وغَيْرة ، وبمراجعة سريعة لذاكرتها ، كشفت أنها ، وهى ابنة (ماجد عثمان) الثرىّ المعروف ، لم تحظَ أبدًا بمثل هذه العبارات الجميلة ، فقالت فى حِدَّة :

ـ عجبًا !!.. على الرغم من أنك تستطيع الحصول على الأفضل .

تمنَّت (سُميَّة) فى تلك اللحظة لو أنها قفزت إليها ، ولكمتها لكْمَة تحطِّم أنفها المتغطرس هذا ، ولكن (شريف) قال فى هدوء :

ـ لاتوجد مَنْ هى أفضل من (سُميَّة) .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يستطرد :

ـ إنها لاتصبغ شعرها على الأقل .

ندَّت من (هالة) حركة عنيفة ، وانعقد حاجباه فى تحفُّز ، فقد كانت هى الوحيدة من الجالسات ، التى تصبغ شعرها الأسود بلون أشقر ذهبىّ ..

وفى عصبيَّة هتفت :

ـ أنتَ وَقِح !

تصوَّرت (سُميَّة) أنه سيغضب ، ويَسُبّ (هالة) ، أو يصفعها ، وانكمشت فى مقعدها تخشى ردّ الفعل ، إلَّا أن (شريف) اكتفى بضحكة هادئة ، وهو يقول :

ـ أنا ؟!

ثم أطلق ضحكة طويلة ، شاركته فيها كل الفتيات فى تلقائية ، فيما عدا (هالة) بالطبع ، التى انعقد حاجباها فى حَنَق شديد ، فى حين انحنى (شريف) على (سُميَّة) ، قائلًا فى لهجة مهذَّبة للغاية :

ـ آنسة (سُميَّة) .. أتسمحين بالتحدُّث معى لحظات .. على انفراد .

احمرَّ وجهها خجلًا فى شِدَّة ، وتطلَّعت إلى زميلاتها فى ارتباك ، فربَّتت (ميرفت) على كتفها ، قائلة :

— ولِمَ لا ؟

وفى أعماقها تفجَّر السؤال نفسه ..

ولِمَ لا ؟..

إنها ستلتقى به فى النادى ..

فى مكان عام ..

ثم إن لديها مئات الأسئلة ، التى تودُّ طرحها عليه ..

إنها تريد أن تعرف مَنْ هو ؟

ما سرُّ غموضه ؟

كيف يجدها فى كل وقت ؟..

وفى هدوء ، كرَّر هو سؤاله :

— أتسمحين يا آنسة (سُميَّة) ؟

انتقلت إجابتها من رأسها إلى شفتيها فى آلية :

— ولِمَ لا ؟

اعتدل وهو يبتسم ابتسامته الجذَّابة ، ونهضت هى فى رِقَّة وهدوء ، ومدَّت كفَّها إليه ، فالتقطها فى راحته فى رفق ، ودفعها إلى تأبُّط ذراعه ، مما دفع مزيدًا من دماء الخجل إلى وجنتيها ، قبل أن تبتعد معه إلى مائدة مستقلَّة ..

وغمغمت صديقتها (ميرفت) ، وهى تتبعهما بعينيها فى حنان :

— يا للرَّوعة !!.. إنهما يبدوان كما لو أن كلًّا منهما قد خُلِق للآخر .

هتفت (هالة) فى سُخط :

— هُرَاء !!

رَانَ الصمت لحظة ، ثم انفجرت كل الفتيات ضاحكات فى سُخرية ، فاحتقن وجه (هالة) ، وهى تهتف :

— أؤكِّد لكُم أن كل هذا مجرَّد هُرَاء .. هُرَاء .. هُرَاء ..

ولكنها لم تكن على حقٍّ ..

أىّ شخص يتطلَّع إلى (شريف) و (سُميَّة) ، سيجزم على الفور بأن هذا ليس مجرَّد هُرَاء ..

لقد كان كل منهما يتطلَّع إلى الآخر فى لهفة وشوق ، كما لو كانا عاشقين ، فرَّقت بينهما الأيام طويلًا ، ثم التقيا بعد طول غياب ..

وفى هدوء ، قطع (شريف) حبل الصمت بينهما ، قائلًا :

— اسمى (شريف وجدى) ، وأعمل فى الـ .....

بتر عبارته ، وبدا متردِّدًا لحظة ، ثم أكمل فى حسم :

— فى الأعمال الحرَّة ، وعمرى ، اثنان وثلاثون عامًا ..

تمتمت فى حياء :

ــ قُلْ لى أوَّلًا .. كيف أمكنك أن تتبعنى بهذه الدِّقَّة ؟
غمغم مبتسمًا :
ــ أتبعك ؟!
هتفت فى خجَل :
ــ لا تقُل إنها مجرَّد مصادفة ، فلست أُومن بالمصادفات ، وخاصَّةً لو تجاوزت حدَّها المعقول .
ابتسم قائلًا :
ــ وَمَنْ قال إنها مصادفة ؟
وصمت لحظة ، ثم أضاف فى جدِّيَّة :
ــ لقد كنت أتبعك .
تراجعت مغمغمة فى دهشة :
ــ تتبعنى ؟!
أومأ برأسه إيجابًا ، وأضاف بنفس الجدِّيَّة :
ــ نعم .. كنت أتبعك ، وأجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنك .
ارتفع حاجباها فى دهشة ، وقبل أن تلفظ بحرف واحد ، كان هو يتابع حديثه ، قائلًا :
ــ إننى أعلم الآن أن اسمك هو (سُميَّة) ، وأن والدك

مدير مشتريات مصانع (ماجد عثمان) لأدوات الزِّينة ، وأنه رجل شريف ، لا غبار عليه ، وأنك ابنته الوحيدة ، و .....
اتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تستمع إليه ، ثم هتفت مقاطعة :
ــ رُوَيْدَكَ .. متى حصلت على كل هذه المعلومات ؟
ابتسم مغمغمًا :
ــ الواقع أننى طلبت من بعض الأصدقاء جمعها ، عندما كنت فى (إيطاليا) ، ولقد أنجزوا عملهم على نحو جيِّد ، كما هو واضح .
مالت نحوه ، تتطلَّع إلى وجهه فى حَيْرة ، مغمغمة فى انبهار :
ــ أى رجل أنت ؟
أجابها مبتسمًا :
ــ رجل مفتون بسحرك ..
غضَّت بصرها فى حياء ، وهى تغمغم :
ــ إننى أطلب جوابًا جادًّا .
اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :
ــ ولقد حصلت عليه .
أدهشتها إجاباته إدهاشًا بالغًا ..

كان يبدو كأنما يُعِدُّ الجواب ، على كل عبارة يسمعها ، مسبقًا ، وكأنه يتوقَّعها أو ينتظرها ..

وكانت كل إجاباته تسعدها ، وتقرع ناقوس الأنوثة فى أعماقها ، فيتصاعد رنينه إلى قلبها ، ووجدانها ..

ومعه شعرت أنها لا تسير على الأرض ، بل تحلّق بين السحاب ..

سحاب وردىّ عَطِر ..

وفى دِفْء عينيه ذابت ..

وفى سحر كلماته هامت ..

وفى صوت خافت للغاية ، تمتمت :

ــ أخبرنى حقًا .. مَنْ أنت ؟

أجابها بكل دِفْء كلماته :

ــ أريدك يا (سُميَّة) .

همست هائمة :

ــ ماذا تقول ؟

أجابها فى حزم ناعم :

ــ أقول إننى أريدك .

سألته بصوت أشبه بنعاس فراشة رقيقة ، فوق زهرة ناعمة :

ــ كيف ؟

تسلَّلت أصابعه إلى أصابعها ، واحتضنتها فى حُنُوٍّ بالغ ، وهو يقول :

ــ أريد أن أتزوَّجك .

وخفق قلبها بين ضلوعها ..

وذابت أصابعها فى أصابعه ..

* * *



٧ ــ شهر عسل ..

كان حفل زفافًا رائعًا ، بدا فيه العروسان كأبهى ما يكون ..

وكانت غيْرة صديقات (سُميَّة) شديدة ، وهُنَّ يرينها فى ثوب الزفاف الأبيض ، تتأبَّط ذِراع زوجها الوسيم (شريف) ..

وبكت أمّ (سُميَّة) ، وبكى والدها فرحًا ، أمَّا هى ، فقد كانت تسبح فى سماء السعادة والعشق ، وتحتضن ذراع زوجها فى فرح ، غير مصدِّقة أنها ، وفى هذه اللحظة بالذات ، تُزَفُّ إلى فارس أحلامها ..

لم تكن قد أفاقت بعدُ من المفاجأة ..

لقد تحدَّث إليها (شريف) فى ذلك اليوم ، فى النادى ، وطلب منها أن توافق على الزواج منه ..

ووافقت ..

وبعدها سار كل شىء فى سرعة بالغة .

تقدَّم (شريف) إلى والدها يطلب يدها ، فوافق والدها على الفور ، وكأنما يعلن له امتنانه لموقفه الشهم معهما فى (إيطاليا) ، وترحيبًا به زوجًا لابنته ..

ولم تكن هناك أيَّة عقبات ماديَّة ..

كان (شريف) يمتلك شقة أنيقة ، فى حىّ هادئ ، مؤثثة بأحدث الأثاثات ، وسيَّارة من طراز مصرىّ معتاد ، ولم يضع والدها أيَّة عراقيل ماديَّة أو اجتماعية ، خاصة بعد أن علم أن (شريف) يتيم الأبوين ، لا أقارب له فى (مصر) ، وإنما يقيم كل أقاربه ، الباقين على قيد الحياة ، فى (تركيا) ، مسقط رأس أمّه ، التى ورث منها ذلك الشعر الفاحم الناعم ، وتلك البشرة البيضاء ، المُشْرَبَة بحُمرة خفيفة ..

وبسرعة تحدَّد موعد عقد القران والزفاف ..

وأصبحت (سُميَّة) زوجته ..

وحضر كل أصدقائها وصديقاتها حفل زفافها ..

وكذلك أصدقاء (شريف) ، الذين انتشروا فى الحفل فى رصانة ، وكل منهم يحمل فوق شفتيه ابتسامة صامتة غامضة ..

وكانوا جميعًا يشتركون فى صفة واحدة ..

الغموض ..

ولقد أثار هذا انتباه المدعُوِّين ، وخاصَّة النساء ، فرُحْنَ يتهامسن حول تلك الملحوظة ، ويتساءلن عن طبيعة عمل العريس ، الذى لم يعرفوا عنه سوى أنه يعمل بالأعمال الحرة فحسب ..

ولم يَدْرِ أى مخلوقٍ طبيعة تلك الأعمال ..

وعندما حانت لحظة الزِّفاف ، وتأبَّطت (سُميَّة) ذراع (شريف) ، وبدأ دقّ الدُّفوف ، اجتمع كل أصدقاء (شريف) ، وراحوا يصافحونه مهنِّئين ، ثم مال أحدهم على أذنه ، هامسًا :

ــ تذكَّر .. ستقضى شهر العسل فى (باريس) .

ابتسم هو فى هدوء ، قائلًا :

ــ كنت أفضِّل أن أقضيه هنا .

ضحك زميله فى خُفوت ، وهو يقول :

ــ الرئيس قال إنك ستفضِّل (مصر) كالمعتاد ، ولكن العمل هو العمل .

مطَّ (شريف) شفتيه ، وغمغم :

ــ للأسف !

سمعت (سُميَّة) ذلك الحوار ، وأدهشها ما تسمع كثيرًا ، فقد بدت لها عبارات الحوار متناقضة للغاية ..

فما شأن شهر العسل بالعمل ؟!..

وأىّ عمل هذا فى (باريس) ؟..

وعندما أصبحت مع (شريف) وحدهما فى حجرتهما ، سألته فى اهتمام :

ــ هل سنقضى شهر العسل فى (باريس) ؟

أجابها مبتسمًا :

ــ نعم .. سأعمل جاهدًا على منحك أفضل شهر عسل فى التاريخ .

سألته فى فُضُول :

ــ ما العمل الذى ستقوم به هناك ؟

حدَّق فى وجهها بدهشة ، وخُيِّل إليها أنها ترى لمحة صارمة فى وجهه ، وهو يقول :

ــ مَنْ أخبرك بأمر العمل ؟

أجابته فى رَهبة :

سمعت زميلك يحدِّثك عنه .

لانت ملامحه ، وانفرجت أساريره عن ابتسامة عذبة ، وهو يقول :

ــ إنه يمزح .

ثم مدَّ أصابعه ينزع طرحة الزفاف عن رأسها ، مستطردًا فى حنان :

ــ ولكننى لن أسمح لهذا المزاح بإفساد ليلة عمرنا .

أطرقت حياءً ، وأخفت سعادتها ولهفتها فى خجلها ، وهى تتمتم :

ـــ ولا أنا ..

نسيت كل شيء عن ذلك الحوار ، وهو يرفع وجهها فى رفق ، لتلتقى عيونهما ..

ومرَّة أخرى ذابت فى دِفء عينيه ..

ودِفء حبه ..

* * *

« هل نمت ؟.. » ..

تسلّل سؤاله فى حُنُوٍّ إلى أذُنيها ، وهى تُسْبِل جفنيها فوق المقعد المجاور له ، فى الطائرة التى تقلّهما إلى (باريس) ، ليبدأ شهر عسلهما ، وشعرت بأنامله تربِّت على كفها فى حبٍّ ، ففتحت عينيها فى بطء ، وتطلّعت إلى وجهه الوسيم ، وابتسامته الجذّابة ، وهى تهمس فى حبّ :

ـــ لا .. لقد أغلقت عينىَّ لأحلُم فحسب .

سألها فى حنان :

ـــ هل اعتدت الاستغراق فى أحلام اليقظة ؟

غمغمت فى حياء :

ـــ منذ عرفتك فحسب .

خُيِّل إليها أن عبارتها قد فجّرت ينابيع دفئه كلها ، وأطلقتها فى عينيه ، وهو يحتويها بهما ، قبل أن يغمغم :

ـــ كيف أعبِّر لك عن حُبِّى يا (سُميَّة) ؟

أجابته فى سعادة :

ـــ بأن تمنحنى المزيد منه .

احتضن كفّها فى راحتيه ، وهو يقول :

ـــ كل ما أتمنّاه هو أن يمنحنى الله (سبحانه وتعالى) ما يكفى من العمر ، لأعبِّر لك عن حُبِّى يا (سُميَّة) .

غمغمت فى همس ، وهى تملأ عينيها بوسامته :

ـــ أتحبُّنى حقًّا يا (شريف) ؟

ابتسم فى عِتاب ، مغمغمًا :

ـــ ياله من سؤال !!

اعتدلت تسأله فى جدِّيَّة ، وفى لهجة تشوبها رنّة قلق :

ـــ صدِّقنى يا (شريف) .. إننى أرغب فى معرفة الجواب حقًّا ، فمنطقى وعقلى يشعران بالدهشة ، لنشوء حبّ قوىّ كهذا ، فى فترة زمنية قصيرة إلى هذا الحدّ .

تطلّع إليها طويلًا فى هدوء ، ثم تراجع فى مقعده ، وأراح رأسه خلفه ، وتركها تنتظر جوابه فى لهفة ، قبل أن يسألها هو :

ـــ لماذا نحبّ يا (سُميَّة) ؟

تردَّدت إزاء هذا السؤال المفاجئ ، وغمغمت :

ـــ هذا يختلف من إنسان إلى آخر بالتأكيد .

قال وكأنه يجيب عن سؤاله :

ـــ إننا نحبّ ، عندما نجد أمامنا شخصًا يمثّل كل ما كنّا نصبُوا إليه طِيلة عمرنا ، وهذا يَعْنِى أن الحب لا ينشأ أبدًا فجأة ، حتى وإن بدا كذلك ، فالمرء يقضى عمره كله ، ليصنع فى خياله صورة لفتاة أحلامه ، بكل صفاتها وملامحها ورِقّتها وطبائعها .. وعندما تتجسَّد هذه الصورة أمامه ، على هيئة حيَّة ، فإنه يقع فى غرامها على الفَوْر .. وليس هذا حبًّا من أوَّل نظرة ، بل هو عثور على حبٍّ قديم .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، مَحَتِ القليل من جدِّيَّته ، وهو يستطرد :

ـــ أتؤمنين بتناسخ الأرواح ؟

غمغمت فى شُرُود :

ـــ بالطبع .

ابتسم ، وكأنما يسعده تأيدها لأفكاره ، وهو يقول :

ـــ أنا أيضًا أومن به ، وأشعر أحيانًا أنه من المحتمل أن يلتقى

شخصان لأوَّل مرَّة ، فيقع كل منهما فى غرام الآخر ، ليس لأن أفكارهما قد التقت ، ولكن لأن روحيهما كانتا متحابتين من قبل ، فى زمن آخر ، وحياة أخرى .

ارتفع حاجباها ، وهى تقول فى هيام :

ـــ يا إلٰهى !!.. إنك شاعر يا (شريف) .

تنهَّد فى عمق ، وقال :

ـــ كم يدهشنى هذا ، فمهنتنا لا تحتمل الشعراء .

غمغمت فى حَيْرة :

ـــ مهنتكم .

ابتسم قائلًا :

ـــ أقصد الأعمال الحرَّة .

ابتسمت قائلة :

ـــ هذه ليست مهنة .

بدت لها ابتسامته ، وكأنها تخفى أسرار الدنيا خلفها ، وهو يتمتم :

ـــ بالطبع .

ثم أشار إلى النافذة ، مضيفًا :

ـــ انظرى .. ها هى ذى (باريس) .

التفتت إلى النافذة ، وأطلّت منها على أشهر معالِمِ (باريس) ..

برج (إيفل) ..

وغمغمت في سعادة :

ـ لم أتصوَّر أبدًا أن أراه .

ثم التفتت إليه تسأله في لهفة :

ـ هل رأيته من قبل ؟

أجابها ضاحكًا :

ـ عشرات المرّات .

تألّقت عيناها ، وهي تهتف :

ـ يالروعة عملك .. إنه يجعلك تطُوف العالَم كله .

مطّ شفتيه ، مغمغمًا :

ـ أنا مستعد لإبداله معك ، لو أردت .

هتفت في حماس :

ـ أنا أقبل .

ابتسم في تعاطف ، وربَّت على كفِّها ، مغمغمًا :

ـ أمّا أنا فلا .

ثم تنهَّد ، قبل أن يستطرد :

ـ فمهنتنا بالغة الخطورة .

دوَّت العبارة في أُذنيها مخيفة ..

أيَّة مهنة تلك البالغة الخطورة ؟..

وما الخطورة في عالَم الأعمال ؟..

ذاب الدَّوِيّ في عقلها بسرعة ، مع انبهارها بـ (باريس) ، ومع هبوط الطائرة في مطار (أورلي) ..

ولاحظت في إعجاب أن زوجها يتقن الفرنسية ، ويتعامل بها في بساطة ، مع رجال المطار في (باريس) ، فسألته في انبهار ، وهما يغادران أرض المطار :

ـ كم لغةً تجيد ؟

أجابها في بساطة :

ـ أربع لغات .. أو خمس ..

سألته في لهفة :

ـ ماذا غير الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ؟

ابتسم مغمغمًا :

ـ الألمانية .

هتفت مبهُورة :

ـ كيف يمكنك أن تجيد كل هذا القدر من اللُّغات ؟

هزَّ كتفيه ، مغمغمًا :

ــ هذا يحدث بصورة طبيعية ، مع كثرة التَّجوال والسفر .

ضحكت قائلة :

ــ أتعْنِى أنه من المحتمل أن أجيد هذه اللغات بِدَوْرِى ؟.

ابتسم مغمغمًا :

ــ هذا يتوقَّف عليك .

قال هذا ، وأخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه ، وهو يدور بعينيه فى موقف السيَّارات ، قبل أن يتجه معها إلى سيَّارة حمراء صغيرة ، تحمل مقدمتها صورة زيتية ضخمة ، وقال :

ــ هيَّا .. سنذهب إلى حيث سنقيم .

هتفت فى دهشة :

ــ هل تملك سيَّارة هنا ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال وهو يفتح لها باب السيَّارة :

ــ لا .. إنها ملك صديق ، ولكنه أعارنا إيَّاها فى شهر العسل .

سألته وهى تدلف إلى السيَّارة :

ــ وهل تركها هنا وانصرف ؟

ابتسم مغمغمًا :

ــ إنه لن يترك عمله .

لاحظت فى حَيْرة كيف أدار السيَّارة ، وانطلق بها فى بساطة ، وكأنما اعتاد قيادتها طِيلة عمره ، فرفعت عينيها إلى وجهه ، وتأمَّلته فى حَيْرة ، قبل أن تسأله فى صوْت قَلِق :

ــ أىّ رجل أنت يا (شريف) ؟

ابتسم ، وقال دون أن يلتفت إليها :

ــ أما زال هذا السؤال يؤرِّقك ؟

غمغمت :

ــ بعض الأحيان .. وأحيانًا أجد نفسى أتساءل فى حَيْرة : مَنْ هذا الرجل الذى تزوَّجته ؟ إنك تفعل كل شىء فى بساطة تجيد الدهشة ، وتجيد مهارات شتَّى ، ثم إنك غامض .. كتوم .. قُلْ لى : أين تعمل فى (مصر) ؟

ابتسم قائلًا :

ــ فى (القاهرة) .

قالت فى ضيق :

ــ لست أمزح .. إننى أعْنِى أين مكتبك ؟

صمت لحظات ، وكأنما يبحث عن جواب مناسب ، ثم أجابها فى هدوء ، وإن حمل صوته نبْرة حازمة ، بدت وكأنها تأمرها بعدم الخَوْض فى هذا الأمر مرَّة ثانية :

— لم يستقر عملى بعد .

سألته فى حِدَّة :

— مِمَّ تنفق إذن ؟

لم يجب هذه المرَّة ..

طال صمته فى توتُّر ، ثم لوح بكفِّه مغمغمًا :

— أهذه هى أسئلة شهر العسل ؟

أخجلها أن تنتبه إلى ذلك ، فتمتمت فى تراجع :

— أردت أن أعرف فحسب .

قال فى حزم :

— ستعرفين .

وصمت لحظة ، ثم استدرك :

— فى الوقت المناسب .

كان هذا الجواب كافيًا لتُطْبِق شفتيها تمامًا ، وإن ظلَّ عقلها حائرًا ، يبحث عن جواب لتساؤلاتها ..

ولأوَّل مرة منذ التقت به ، شعرت أن والديها قد تسرَّعا فى قبول هذا الزواج ..

وكذلك هى ..

إن ثلاثتهم لم يبحثوا طويلًا عن شخصيته ..

لقد أسَرَهُم جميله معهم فى (إيطاليا) ، وسحرتهم شخصيته الجذَّابة ، وألهتهم خطواته الحاسمة السريعة ، فظلوا يلهثون ، حتى تم الزواج ، مكتفين بما أدلاه من معلومات عن نفسه ، مانحين إيَّاه كل ثقتهم بلا شكٍّ أو تردُّد ، أو حتى تساؤل ..

ولكن ما الذى يعرفونه عنه ؟..

لا شىء ..

فقط ما أخبرهم هو به ..

إنهم يجهلون كل ما عدا ذلك ..

ولأوَّل مرَّة ، أقلقها ذلك فى شِدَّة ..

وفجأة ، استرجعت حديثه مع زميله عن العمل ، وضرورة قضاء شهر العسل فى (باريس) ..

وبدا لها هذا الحديث الآن مريبًا ، قلقًا ..

بدا لها أنه يحمل الكثير والكثير من المعانى ..

وقبل أن تستغرق فى أفكارها ، سمعته يقول :

— لقد وصلنا .

رفعت عينيها إلى البناية التى توقَّفا عندها ..

لم تكن فندقًا كما توقَّعت ..

كانت بِناية سكنية فاخرة ..
وسألته فى دهشة :
ـ أسنقيم هنا ؟
ابتسم قائلًا :
ـ هذا أفضل من الفندق كثيرًا .
ثم جذبها فى رفق إلى خارج السيّارة ، وحمل حقيبتهما ، مستطردًا :
ـ وستروق لك تلك الشقة للغاية .
سألته فى دهشة ، وهى تصعد معه سلالم البِناية الرخاميّة ، إلى حيث مِصْعَدُها الفخم :
ـ من أين حصلت عليها ؟.. وكيف ؟
أجابها فى مرح :
ـ إنها ملك صديق ، ولقد أهداها إلينا فى شهر العسل .
سألته فى حيْرة :
ـ أهو صاحب السيّارة أيضًا ؟
غمغم فى اقتضاب :
ـ نعم ..
بلغ بهما المِصْعد ذلك الطابق ، حيث شقة زميله المزعوم

هذا ، فأخرج من سلسلة مفاتيحه مفتاحًا ، دسّه فى الثُّقب المخصص له ، وأداره فى هدوء ، فاستجاب له الباب على الفوْر ، ودفعه ليدلف إلى الشقة معها ، قائلًا :
ـ ستروق لكِ كثيرًا .
لم يكد يشعل الأضواء ، حتى أيقنت من أنه على حق ..
كانت الشقة فاخرة بالفعل ..
بل مُبْهرة ..
كل ما سمعت عنه أو شاهدته ، من روائع الأثاث والتُّحف كان هناك ..
كل الأدوات الكهربائية ..
كل تكنولوچيا العصر ..
وهتفت مَبْهورة :
ـ يا إلٰهى !!.. يبدو أن صديقك هذا بالغ الثراء يا (شريف) .
غمغم ضاحكًا :
ـ هناك بعض الامتيازات لكل مهنة .. أليس كذلك ؟
سألته فى حَيْرة :
ـ ما مهنته ؟

لم يُجِبْ هذه المرَّة أيضًا ..

اكتفى بابتسامة شاردة ، ونظرة طويلة ، جعلتها تُصِرُّ على أن تكرِّر سؤالها فى صيغة أخرى :

ــ فِيمَ يعمل صديقك هذا ؟

ظلَّت ابتسامته شاردة ، وهو يجيب :

ــ إنه ينقل بعض الأشياء .

بدت لها العبارة غامضة ، مُبهمة ، فقالت فى حِدَّة ، وكأنما تعلن رفضها لهذا الأسلوب الغامض :

ــ مثل ماذا ؟.. مخدِّرات ؟

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وبدا لها لحظة أنَّه سيقول عبارة ما ، إلَّا أنه لم يلبث أن ابتسم ، وقال فى ضحكة بدت مفتعلة وعصبيَّة :

ــ يا لَهُ من تصوُّر !.. مَنْ وضع فى رأسك هذه الفكرة السخيفة ؟

فتحت فمها لتقول شيئًا ، ولكن جرس الباب ارتفع فى تلك اللحظة بغتة ، فى رنين متصل ، تجمَّد إثره (شريف) تمامًا ، وانعقد حاجباه ، وانضمَّت قبضته فى تحفُّز ، حتى توقَّف الرَّنين ، فهتفت هى فى صوت منخفض ، ولهجة قلقة :

ــ تُرَى مَنِ الذى ......؟

قاطعها بإشارة صارمة من يده ، وهو يرهف سمعه جيِّدًا ، حتى انطلق الجرس فى ثلاث رنَّات متتالية سريعة ، فهتف بها (شريف) فى حزم :

ــ اذهبى إلى حجرة النوم .

سألته فى قلق :

ــ ماذا هناك ؟

هتف بها فى صرامة :

ــ اذهبى .

أسرعت إلى حجرة النوم ، وتوقَّفت عندها تتطلَّع إلى الباب فى شَغَف شديد ..

كان هذا ــ فى رأيها ــ جزءًا من مسلسل الغموض فى حياته ..

وعندما فتح الباب ، احتبست أنفاسها فى حلقها ..

لقد اندفع من الباب رجل يمسك مسدَّسًا ، ومن كتفه تنزف دماء غزيرة ..

ولم تكن (سُميَّة) تحتاج إلى كثير من الذكاء ، لتدرك طبيعة ذلك الشىء ، الذى أصاب الرجل بذلك الجرح ..

كان من الواضح أنه .. رصاصة ..

* * *

٨ ــ الخَوْف ..

تراجعت (سُميَّة) فى خَوْف ، حتى التصق ظهرها بباب حجرة النوم ، وهى تحدِّق فى الرجل المصاب ، الذى اندفع إلى داخل الشقة ، وهتف بزوجها :

ــ أغلق الباب فى سرعة ، قد يكون أحدهم خلفى .

عقد (شريف) حاجبيه فى شِدَّة ، وهو يعاون الرجل على الجلوس ، قائلًا :

ــ مَنْ فعل بك هذا ؟

ألقى الرجل جسده فوق مقعد قريب ، وهو يجيب فى إعياء :

ــ رجال الشرطة .. لقد أفسدوا العملية .

غمغم زوجها فى حَنَق :

ــ اللَّعنة !!

ثم تناول من الرجل مسدَّسه ، ودسَّه فى حزامه هو فى آلية ، وهو يسأله :

ــ أأنت واثق من أن أحدهم لم يتبعك إلى هنا ؟

أومأ الرجل برأسه إيجابًا فى تهالك ، فانحنى (شريف) يفحص جُرحه فى سرعة ، ثم قال :

ــ حمدًا لله .. الرصاصة لم تخترق عظام الكتف .. لقد مرقت من العضلات ، وغادرت مكانها ..

تمتم الرجل :

ــ هذا أفضل ، فلن نحتاج إلى طبيب فى هذه الحالة .

اتسعت عينا (سُميَّة) فى ذُعْر ، وهى تستمع إلى هذا الحوار ، وبدت لها الحقيقة رهيبة مُفْزِعة ..

لقد تزوَّجت مجرمًا ..

لا معنى لكل ما حدث سوى هذا ..

عملُه الغامض ..

اللُّغات التى يجيدها ..

غموض أصدقائه ..

كثرة السفر ..

وأخيرًا ، قول زميله هذا إن الشرطة قد أفسدت العملية ..

لم يَعُدْ لديها شكّ ..

إنها زوجة مجرم ..

مجرم دولىّ ..

أو هو مهرّب مخدّرات ..

لقد احتقن وجهه غضبًا ، عندما ذكرت ذلك أمامه ..

إنه حتمًا مهرّب مخدّرات ..

هذا يبرّر كل مايرفل فيه من ثراء ..

يالحظها العاثِر !!..

يالنصيبها !!..

لقد بهرتها شخصيته ، كما بهرت والديها وصديقاتها ..

لقد خدعهم سحره ..

وهى الآن زوجته ..

انفطر قلبها أمام تلك الحقيقة المفزعة ، وتجمّدت أطرافها ، عندما التفت إليها (شريف) ، وقال فى لهجة صارمة آمرة :

ــ أحضِرى بعض الماء الساخن .

قالها وهو ينزع قميص زميله فى سرعة ، فحدّقت فى وجهه ، وهى تقول فى ذُعر :

ــ ماء ساخن ؟!

هتف بها فى حزم :

ــ أسرعى .

انتزعت نفسها من مكانها بالقوّة ، واندفعت نحو مطبخ الشقة ، وراحت أطرافها ترتجف ، وهى تحمل إليه الماء الساخن ، ثم تتراجع ، وتتابع مايحدث فى خوف ولَوعَة ..

وبسرعة راح (شريف) يعالج جرح زميله ، وفى مهارة راح يطهّره ويعقّمه ، مغمغمًا :

ــ اطمئنّ .. لن يستغرق ذلك طويلًا .. إنه يبدو مؤلمًا فى البداية ، ولكنه يُشفَى بسرعة ، فعندما تخترق الرصاصة جسدك ، تكون درجة حرارتها مرتفعة للغاية ، حتى أنها تكوِى الجلد خلفها .

ابتسم زميله ابتسامة شاحبة ، وهو يتمتم :

ــ بِمَ تبرّر هذا النّزف الدموىّ إذن ؟

ربَّت (شريف) على كتفه ، مغمغمًا :

ــ إنه جرح تقليدىّ فحسب .

تأوّه الرجل فى ألم ، ثم عاد يبتسم نفس الابتسامة الشاحبة ، ويقول بصوت متماسك :

ــ أنت تقول هذا ؛ لأنك لم تُصَب من قبل برصاصة .

غمغم (شريف) ، وهو يضمّد جراح الرجل :

ــ لن يستمرّ هذا إلى الأبد .. فذلك يحدث إن عاجلًا أو آجلًا .

وحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة باردة ، وهو يستطرد :

ـ المهم ألّا تستقرَّ الرصاصة فى قلوبنا .

تنهَّد زميله ، وقال :

ـ هذا يحدث أيضًا ، إن عاجلًا أو آجلًا .

انتهى (شريف) من تضميد جراح زميله فى تلكَ اللحظة ، فاعتدل واقفًا ، وقال :

ـ من حُسن الحظ أنك قد وصلت ونحن هنا .

أدار الرجل عينيه إلى حيث تقف (سُميَّة) ، وقال فى صوت منخفض :

ـ أهذه زوجتك ؟

غمغم (شريف) فى اقتضاب :

ـ نعم .

حاول الرجل أن يبتسم ، ليخفِّف من توتُّرها ، وهو يقول :

ـ تقبَّلى تهنئاتى بالزواج يا سيِّدتى ، وأسفى فى الوقت ذاته ؛ لأننى أفسدت بداية شهر عسلكما ، ولكن لم يكن هناك مكان آخر ألجأ إليه ، وأنت تعلمين طبيعة هذا العمل الـ .....

قاطعه (شريف) فى حزم :

ـ إنها لاتعلم عنه شيئًا .

التفت إليه زميله ، مغمغمًا فى دهشة :

ـ حقًّا !!..

انتزعتها هذه العبارة من ذُعرِهَا ، فعقدت حاجبيها ، وهى تقول فى غضب :

ـ حتى الآن .

ثم اندفعت داخل الحجرة فى حِدَّة ، وأغلقت بابها خلفها فى عنف ..

وَوَجَم الرجل لحظات ، ثم غمغم :

ـ معذرةً يا (شريف) ، لم أتصوَّر أنك لم تبلِّغها بَعْدُ .

غمغم (شريف) :

ـ لاعليك .. كنت أنتظر اللحظة المناسبة فحسب .

ثم أشار إلى حجرة نوم جانبية ، وهو يضيف :

ـ يمكنك أن تقضىَ ليلتك هنا .

غمغم زميله فى حرج :

ـ أتظن ذلك لائقًا ؟.. أعنى أنكما فى شهر العسل ، و .....

قاطعه فى حزم :

ـ للضرورة أحكام .

ثم اتجه إلى حجرة النوم ، ودلف إليها فى سرعة ، وأغلق بابها خلفه ، وهو يتطلّع إلى (سُميّة) ، التى استلقت فوق الفراش ، والدموع تغطّى وجهها ، وغمغم :

ـ هل لى أن أطلب منك معروفًا ؟

لم تُجِبْ ، وإنما أشاحت بوجهها عنه ، لتخفى دموعها وألمها ، فأكمل فى صوت متوتّر :

ـ أريد منك ألّا تطالبى بتفسير .

تضاعف انهمار دموعها ، فغمغم مستطردًا :

ـ فى الوقت الحالى على الأقل .

قالت فى حِدّة ، دون أن تلتفت إليه :

ـ لماذا ؟

عقد حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لأننى لن أملك منحك التفسير اللازم ، فى هذه الآونة .

عادت تقول فى حِدّة ، وهى تدير عينيها المُغْرَوْرِقَتين بالدموع إليه :

ـ لماذا أيضًا ؟

أشاح هو بوجهه هذه المرّة ، وهو يغمغم :

ـ لأن هذا لا يحدث فى عالَمِنا .

صاحت مُختنِقة :

ـ أىّ عالَم هذا ؟.. أهو عالَم اللُّصوص والمُحتالين ، أم عالَم مُهرِّبى المخدِّرات ؟

صاح بها غاضبًا :

ـ (سُميّة) !!

هتفت فى انهيار :

ـ ماذا تريد منّى ؟.. ألَمْ يكْفِك ما فعلته بى ؟

تطلّع إليها فى إشفاق ، ثم اقترب منها ، وحاول أن يضمّها إلى صدره ، مغمغمًا فى حنان :

ـ صدِّقينى يا حبيبتى .. إننى .....

أبعدته عنها فى حِدّة ، وهى تهتف :

ـ لست مستعدّة لسماع أقوالك .

عقد حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ـ ومن قال إننى أرغب فى الإدلاء بأيّة أقوال ؟

ثم تنهّد فى قوّة ، وكأنما يحاول السيطرة على أعصابه ، وأضاف :

ـ اسمعينى يا (سُميّة) .. كل ما أطلبه منك هو الثقة .. صحيح أن ما ترينه حولك يجعل الحصول عليها أمرًا عسيرًا ،

ولكننى أدين بكل ما أنا فيه الآن لما ترينه .. هذا جزء من عملى .

هتفت :

ـ تقصد من جرائمك .

بدا التأثر على وجهه ، وهو يقول :

ـ جرائمى ؟!..

ثم ربَّت على كتفها فى حنان ، مغمغمًا فى ألم :

ـ (سُميَّة) .. دعِينى أسألك سؤالًا واحدًا .. أما زلتِ تحبِّيننى ؟

بكت فى حرارة مع سؤاله ..

إنها ما زالت تحبُّه بالفعل ..

ما زالت لمساته تلهب مشاعرها ..

ما زالت غارقة فى سحره حتى أُذنيها ..

ولكنها لا تحتمل الفكرة ..

لا تحتمل فكرة أن يكون زوجها لصًّا أو مجرمًا أو مهرّبًا للمخدّرات ..

لن تحتمل الافتراق عنه ، إذا ما ألقى رجال الشرطة القبض عليه يومًا ..

وهتفت من وسط دموعها :

ـ مأساتى هى أننى أحبُّك .

سمعته يتنهَّد فى ارتياح ، ثم يحيطها بذراعيه فى حنان ، هامسًا فى أُذنها :

ـ هذا يمنحنى أنا الكثير من الثقة يا حبيبتى .

بكت بين ذراعيه ، وهى تقول :

ـ ويمنحنى أنا الخوف والألم والمرارة .

ضمَّها إلى صدره فى حنان دافق ، وهو يغمغم :

ـ لن يستمر هذا طويلًا يا حبيبتى .. صدِّقينى .. لن يستمر هذا طويلًا .

هتفت ودموعها تنهال بلا انقطاع :

ـ وماذا لو انتهى بمصرعك ؟

تنهَّد مغمغمًا :

ـ سيكون هذا قَدَرِى .

صاحت :

ـ أىُّ قَدَر هذا الذى نصنعه بأيدينا ؟

غمغم فى ألم :

ـ لا أحد يملك صنع قَدَرِه بيديه .. إننا فقط نستسلم له .

هتفت باكية :

ـ خطأ .. خطأ .

ثم تشبثت به ، مستطردة فى ضراعة :

ـ قُل لى يا (شريف) : أما زلت أنت أيضًا تحبُنى ؟

أجابها فى حرارة :

ـ بل أعبدك يا (سُميَّة) .. صدِّقينى .. أنت أجمل شىء فى حياتى كلها ، و .....

قاطعته فى توتُّر :

ـ فلنعُد إذن إلى (مصر) .

انعقد حاجباه ، وهو يهتف :

ـ ماذا ؟

ثم تخلَّى عنها ، مستطردًا فى توتُّر :

ـ ولكننا وصلنا اليوم فحسب يا (سُميَّة) .

هتفت :

ـ لم أعُد أرغب فى البقاء هنا .. فلنعُد إلى (القاهرة) .. أرجوك .

تطلَّع إليها لحظات فى صمت ، ثم نهض من مكانه ، وأدار وجهه إلى النافذة ، وكأنما يفكِّر فى عمق ، قبل أن يغمغم :

ـ أتعلمين ما الذى يمكن أن يقوله الناس ، إذا ما عُدْنا بهذه السرعة ؟

هتفت فى توتُّر :

ـ فليقولوا ما يحلُو لهم .. إن كلامهم لن يَغْنِينى أبدًا .. المهم أن نعُود .

عقد حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ مستحيل يا (سُميَّة) .. مستحيل !! .

قفزت من الفراش ، وتعلَّقت بذراعه هاتفة :

ـ فلنذهب إلى بلد آخر إذن .. (روما) ، أو (لندن) .. أىّ مكان عدا (باريس) .

قال فى حِدَّة :

ـ قلت لك مستحيل .

ثم لوَّح بذراعه مستطردًا :

ـ لقد وصلنا إلى (باريس) بالفعل ، و .....

بتر عبارته لحظة ، ثم أرْدف فى حزم :

ـ ثم إن لدىَّ بعض العمل هنا .

تراجعت مُحْبَطة ، وقالت فى عصبيَّة :

ـ أهو عمل من ذلك النوع ، الذى عمل به زميلك هذا ؟

قال فى صرامة :

— أتعشَّم ألَّا تتعقَّد الأمور إلى هذا الحدّ .

عقدت حاجبيها فى قوّة ، وهى تقول فى حِدَّة :

— إذن أعِدْنى أنا إلى (القاهرة) .

استدار إليها فى حركة حادَّة ، وحدَّق فى وجهها كالمصدوم ، وهو يهتف :

— (سُمَيَّة) !.. ماذا تقولين ؟

ضربت الأرض بقدمها كالأطفال ، وهى تهتف فى عِناد :

— أقُول لك أعِدْنى إلى (القاهرة) .. لن أنتظر هنا يومًا واحدًا .

تطلَّع إليها فى عصبيَّة ، وبدا لحظة أنه سيدلى إليها بشىء ما ، إلَّا أنه لم يلبث أن أشاح بوجهه عنها ، وعاد يتطلَّع من النافذة ، مغمغمًا فى حِدَّة :

— إنها حَماقة .

هتفت فى عناد :

— فليكن .. أريد أن أعود إلى (القاهرة) غدًا .

طال صمته بعض الوقت ، ثم غمغم :

— فلتؤجِّلين هذا إلى ما بعد الغد ، فربما تغيَّرت وجهة نظرك حينذاك .

هتفت فى حِدَّة :

— غدًا يا (شريف) .

طال صمته مرَّة أخرى ، وهو يتطلَّع عَبْرَ النافذة ، قبل أن يقول فى حزم :

— فليكن .. ستعودين غدًا إلى (القاهرة) .

ثم زفر فى قوَّة ، مستطردًا :

— لعل هذا أفضل للجميع ..

* * *



٩ ــ الدُّموع ..

« تعلن شركة (مصر) للطيران عن وصول رحلتها رقم سبعة آلاف وستة ، إلى (القاهرة) ، قادمة من (باريس) ، وعلى السادة الرُّكّاب ربط الأحزمة ، والامتناع عن التدخين ، استعدادًا للهبوط ، مع تهنئتنا بسلامة الوصول » ..

تردَّد ذلك النّداء التقليدى داخل الطائرة ، وبدا أشبه بالصفعات فى أُذنى (سُميّة) ، التى اختفى وجهها خلف شلّال من الدموع ..

أىّ قَدَرٍ هذا ؟..

أىّ مصير ؟..

لقد تمنّت طِيلة عمرها أن تسافر إلى خارج (مصر) ، وعندما فعلت ، وزارت بلدين من عواصم (أوروبا) ، لم تقضِ فى أيهما أكثر من يوم واحد ، وليلة واحدة ..

وفى المرّتين كان هناك (شريف) ..

(شريف وجدى) ..

يا للخسارة !!

إنها لم تتصوَّر أبدًا أن يكون مجرمًا ..

لقد حطَّم أمواج عواطفها على صخرة حبُّه ..

انهارت أحلامها فى واقعه المرير ..

ولم تتوقَّف دموعها عن الانهمار لحظة واحدة ، حتى وهى تستقل سيّارة الأجرة ، التى تنقلها إلى منزلها ..

وكاد قلب أمّها يتوقَّف ، عندما استجابت لنداء جرس الباب ، فوجدت ابنتها أمامها على هذا النحو ، وهتفت فى ارتياع :

ــ (سُميَّة) ؟!.. ماذا حدث يا بنيّتى ؟

تفجَّرت دموع (سُميَّة) كالعاصفة ، وهى تلقى نفسها بين ذراعيها ، هاتفة :

ــ (شريف) يا أُمّى !! (شريف) !!

تفجَّرت دموع الأمّ بدَوْرِهَا ، وهى تهتف فى ذُعْر :

ــ ماذا أصابه يا بنيّتى ؟.. ماذا أصابه ؟

هتفت بين ذراعَىْ أمها فى مرارة :

ــ خَدَعَنى يا أُمّى .. خَدَعَنى .

تجمَّدت الدماء فى عروق الأم ، وسَرَت موجة باردة كالصقيع فى كل جسدها ، وهى تهتف فى هَلَع :

ـ خدعكِ ؟!

ثم أبعدت ابنتها عن صدرها ، وصاحت وهى تتطلّع فى لوْعة إلى وجهها الشديد الشُّحُوب ، وقناع الدموع الذى يخفيه :

ـ كيف خدعك يا (سُميّة) ؟.. كيف ؟

قالت (سُميّة) فى ألم :

ـ لقد أقنعنا جميعًا أنه رجل أعمال .

غاص قلب الأم بين قدميها ، وهى تغمغم فى ارتياع :

ـ ما هو إذن ؟

بكتْ (سُميّة) مرّة أخرى هاتفة :

ـ إنه لِصٌّ يا أُمّى .. لصّ .

اتسعت عينا الأمّ فى رُعب ، وهى تهتف :

ـ لصّ ؟!

ثم جذبت ابنتها إليها ، وأغلقت الباب فى قوّة ، مستطردة :

ـ تعالىْ .

تبعتها (سُميّة) إلى حجرة النوم ، وسمعتها تسألها فى ذُعر :

ـ ما الذى دفعك إلى هذا القول ؟

أجابتها (سُميّة) من وسط دموعها :

ـ ما حدث فى (باريس) يا أمّاه .

ثم راحت تُروى لها كل ما حدث ، واستمعت إليها الأُم فى تماسك يثير الإعجاب ، ثم غمغمت :

ـ يبدو أن الأمر يحتاج إلى استدعاء والدك على الفور .

ولم تمضِ ساعة واحدة ، حتى كان الأب ينضم إليهما شاحِبًا ، هاتفًا :

ـ ولكن هذا مستحيل يا (سُميّة) !!.. لا يمكننى أن أصدّق أبدًا أن (شريف) لصّ ، أو مجرم من أى نوع .. إنه يبدو لى شابًا مخلصًا صادقًا .

سألته فى ألم :

ـ هل تحرّيْت عنه يا أبى ؟

احتقن وجهه حرجًا ، وهو يغمغم :

ـ لم يبدُ لى أن الأمر يحتاج إلى التحرّى ، و .....

بتر عبارته فى توتُّر ، ثم أطرق برأسه مغمغمًا :

ـ حسنًا .. لقد أخطأت .

قالت الأمّ فى انفعال :

ـ ليس هذا هو المهم .. المهم الآن هو أن نفكّر فيما ينبغى عمله .. إن الجميع سيسيئون تأويل الطلاق ، لو حدث بعد هذه الفترة الوجيزة ، فلم يمضِ على زفاف (سُميّة) أسبوع واحد بعدُ .

لوَّح الوالد بكفِّه ، مغمغمًا :

ــ لم يصل الأمر إلى هذا الحدّ بعدُ .

قالت الأمُّ فى عصبيَّة :

ــ وما الذى يمكن أن نفعله غير ذلك ؟.. هل نترك ابنتنا فى عِصْمة مجرم ؟

هتف فى حِدَّة :

ــ إنها مجرَّد استنتاجات .

تمتمت (سُميَّة) فى ألم :

ــ كم أتمنَّى لو أننى مخطئة يا أبى ، ولكن المسدَّسات ، والأسلوب ، والرصاص .. كلها أساليب مُريبة للغاية .

قال فى حزمٍ :

ــ ينبغى أن نتيقَّن أوَّلًا .

سألته فى لهفة :

ــ ماذا ستفعل ؟

أجابها فى حسم :

ــ سأذهب إلى الغرفة التجارية ، وأبحث عن اسمه هناك ، وأراجع سجلَّات المصدِّرين والمُستوْرِدِين ، فمن المستحيل أن يكون هناك رجل أعمال ، لا يرتبط اسمه بأحد هذه الأماكن الثلاثة .

قالت (سُميَّة) :

ــ افعل يا أبى .. أرجوك .

رمقها بنظرة طويلة ، ثم سألها فى حنان :

ــ اصدقينى القول يا بنيَّتى .. أما زلت تحبِّينه ؟

أطرقت بوجهها فى ألم ، وهى تقول :

ــ ربَّما بدا ذلك عجيبًا يا أبى ، ومتناقضًا مع أسلوب تفكيرى المنطقىّ العقلانىّ طِيلة عمرى ، ولكن الجواب هو نعم .. إننى ما زلت أحبّه .. أحبّه بجنون .

ربَّت على كتفها فى حنان ، وهو يغمغم :

ــ هذا ما خشيته .

ثم تنهَّد من أعمق أعماق صدره ، مستطردًا :

ــ فليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير يا بنيَّتى .. فليفعل ما فيه الخير للجميع .

* * *

لم يُسفر البحث عن شىء ..

أو أنه قد أسفر عن نتيجة مفزعة ..

لم يكن اسم (شريف وجدى) مسجَّلًا فى الغرفة التجارية ..

ولا فى سجل المصدِّرين أو المُستورِدين ..

وباتَ من الواضح أنه ليس رجل أعمال من أى نوع ..

ولقد بكت (سُميَّة) طويلًا ، عندما حسم والدها هذا الأمر ، بعد ثلاثة أيام من البحث ..

لقد تمسَّكت بأهداب الأمل طيلة الوقت ..

تمنَّت لو أن كل ما حدث فى (باريس) كان حُلمًا ..

وَهْمًا ..

كابوسًا ..

ولكن بحث والدها صدَمها بالنتيجة المفزعة ..

لقد خدعها (شريف) بالفعل ..

لم يكن أبدًا صادقًا ..

وأفزعها ذلك الخاطر الأخير ، وألقى فى روعها سؤالًا آخر .

هل كان صادقًا فى حُبِّها ؟..

هل كان صريحًا فى عشقها ؟..

أفزعها أن تتصوَّر غير ذلك ..

إنها ما تزالُ تحبّه بحق ..

تحبّه بكيانها كله ..

لم يدرِ منطقها وعقلها أبدًا كيف حدث هذا ؟!..

كيف يحمل قلبها كل هذا الحبَّ له ؟!..

هل فقدت رشدها ، وقدرتها على تقييم الأمور ؟..

هل فقدت منطقها وعقلها ؟..

لم يثِر فيها هذا أى شعور بالإحباط ، بل وجدت نفسها تعترف لقلبها بما وعاه منذ البداية ..

إنها ، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يعارضه الجميع ، تحبُّه ..

تحبُّه فى جُنون ..

حتى ولو كان لصًّا ..

بل حتى ولو كان قاتلًا ..

أمَّا أُمّها ، فقد استقبلت الأمر بمزيد من العصبيَّة ، وهى تقول :

ـ إذن فقد خدعنا .. ماذا سنفعل الآن ؟

أجابها الوالد فى ألم :

ـ سننتظر عودته .

هتفت الأم فى حِدَّة :

ـ ومَنْ أخبرك أنه سيعود ؟

تمتم فى ضيق :

ـ من الطبيعيّ أن يعود .. إنه مصريّ .
لوّحت الأم بذراعها ، صائحة :
ـ لم أعُد أثق حتى فى هذه الحقيقة .
قال وقد بدأت عصبيَّتها تنتقل إليه :
ـ من الضروريّ أن نسمع وجهة نظره على الأقل .
أطلقت الأم ضحكة عصبيَّة ، وهى تقول :
ـ وجهة نظره .. أراهنك أنه لن يعود .. لو أنه يفكِّر ـ مجرَّد التفكير ـ فى ذلك ، لأتصل من هناك بزوجته على الأقل .
أطلق الأب من صدره زفرة قويَّة ، وهو يقول :
حسنًا .. ماذا تقترحين ؟
هتفت الأم فى حِدَّة :
ـ وهل الأمر يحتمل حلًا آخر ؟.. إننا سنطلب الطلاق بالطبع .
سألها فى حِدَّة مماثلة :
ـ كيف ؟
قالت الأم فى صرامة :
ـ كما يحدث فى أىّ طلاق .
قال الأب فى عصبيَّة :

ـ لن يكون هـذا أمرًا عاديًا ، فهـو يقيم فى بلد آخر ، وستكون الإجراءات بالغة التعقيد ، ولن يمكننا طلب الطلاق للهجر ، ولم يمضِ على زواجهما سوى أسبوع واحد .
قالت الأم فى حزم :
ـ هناك وسيلة مضمونة للحصول على الطلاق .
سألتها (سُميَّة) هذه المرَّة :
ـ ما هى يا أُمِّى ؟
رفعت الأم رأسها فى اعتداد ، وهى تقول :
ـ أن نبلغ رجال الشرطة بأمره ، فيوقعوا به ، ويصبح من حقِّ ابنتنا الحصول على الطلاق ، و .....
قاطعتها (سُميَّة) فى حزم :
ـ لا يا أُمِّى .
التفتت إليها أُمّها فى دهشة ، وهى تقول :
ـ لا ؟.. ماذا تَعْنين يا (سُميَّة) ؟
أجابتها فى حِدَّة :
ـ أعْنِى أننى لن أبلغ الشرطة عن (شريف) أبدًا ، مهما كان الثمن .
صاحت أُمّها فى غضب :

ــ ولكنه مجرم .

هتفت (سُميَّة) فى عِناد :

ــ فليكن هذا شأنه .

صاحت الأمّ غاضبة :

ــ سأفعل أنا إذن ، و .....

قاطعها رنين جرس الباب هذه المرَّة ، فعقدت حاجبيها ، قائلة فى توتُّر :

ــ مَنِ الزائر ، فى مثل هذا الوقت المبكِّر ؟

هتفت (سُميَّة) ، وهى تندفع نحو الباب :

ــ ربما كان (شريف) .

أسرعت تفتح الباب ، وهى تهتف فى سعادة :

ــ كنت أعلم أنك .....

بترت عبارتها بغتة ، وهى تحدِّق فى وجهي الرجلين ، اللذين وقفا أمامها ، يتطلَّعان إلى وجهها فى قلق ، فغمغمت :

ــ أيَّة خِدمة يمكنني تقديمها لكما ؟

سألها أكبرهما حجمًا فى صوت خفيض ، ولهجة مهذَّبة :

ــ السيِّدة (سُميَّة) ؟!

أجابته فى قلق متضاعف :

ــ نعم .. أنا هى .

خفض عينيه فى أسف ، وهو يغمغم :

ــ لقد جئنا من أجل زوجك .

تراجعت فى ذُعْر ، واتسعت عيناها فى رُعْب ، وهى تقول :

ــ أأنتما ؟.. أأنتما من رجال الشرطة ؟

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى أسف ، فى حين قال الآخر فى خُفوت :

ــ بل من المخابرات .. المخابرات العامَّة ..

* * *



١٠ ـ هذا الرجل ..

« جاسوس ؟!.. » ..

هتفت الأم بهذه العبارة فى هَلَع ، وهى تندفع إلى رَدْهة المنزل ، إثر سماعها لجواب الرجل ، وتبعها الأب ، هاتفًا فى رُعْب :

ـ مستحيل !!.. مستحيل !.

تبادل الرجلان نظرة دهشة ، ثم قال أقلهما حجمًا فى حَيْرة :

ـ مَنْ ذكر أمر الجواسيس يا سيِّدتى ؟

قالت (سُمَيَّة) فى توتُّر وذُعْر :

ـ ألَمْ تَقُلْ إنكما من المخابرات العامَّة ، وإنكما تريدان زوجى ؟.. ما الذى يَعْنِيه ذلك سوى أنه جاسوس ؟!

أشار الأكبر إلى الأصغر ، فأغلق الباب خلفهما ، بعد أن دَلَفَا معًا إلى الداخل ، ثم وقف إلى جواره منتبهًا ، والأكبر يقول لـ (سُمَيَّة) :

ـ يبدو أنكم قد أخطأتم فهم الأمر يا سيِّدتى ، فنحن لَمْ نَقُلْ إننا نريد زوجك ، وإنما قلنا إننا قد أتينا من أجله .

غمغمت فى حَيْرة :

ـ وما الفارق ؟

هزَّ رأسه ، قائلًا :

ـ الفارق هائل يا سيدتى ، فنحن لا نريد زوجك ؛ لأننا نعلم أين هو .

ثم اعتدل مستطردًا فى صوت حازم قوىّ :

ـ زوجك ليس جاسوسًا يا سيِّدتى .. إنه على العكس ، يحارب هؤلاء الأدنياء .

ثم أدار عينيه فى وجوه الثلاثة ، مستطردًا :

ـ إنه ضابط .. ضابط فى إدارة المخابرات العامَّة .

كان للخبر وقع الصاعقة على الثلاثة ، فاتسعت عيونهم فى ذُهُول ، وهتفت (سُمَيَّة) :

ـ ضابط مخابرات ؟!

الآن فقط أدركتْ ما يَعْنِيه كل هذا ..

المهارات المتعدِّدة ..

حصيلة اللُّغات الفائقة ..

القوَّة ..

الغموض ..

الآن فقط وجدت لحديثه مع زميله معانىَ أخرى ..

واختلج قلبها فى سعادة ، وهى تقول فى حرارة :

ــ يا إلهى .. كان ينبغى أن أثِق فيه .. كان ينبغى أن نفعل .

أمّا والدها ، فقد هتف :

ــ ولكن لماذا لم يخبرنا بذلك ؟!.. لماذا أخفى الأمر عنّا ؟

هزّ الرجل رأسه مرّة أخرى ، وقال :

ــ كان ينبغى أن تعرف (شريف) جيّدًا ، حتى لا تلقى هذا السؤال .

وتنهّد فى عمق ، مستطردًا :

ــ إنه من أكثر ضباط المخابرات إخلاصًا ، وحبًّا لوطنه .. لقد كان يتولّى مهمّة بالغة الخطورة ، عندما التقى بابنتك ، ولكنه وقع فى غرامها منذ اللحظة الأولى ، وعندما وجد أن تفكيره فيها يقلقه ، ويشتّت ذهنه فى مهمّته ، طلب منّا الإذن بالتقدّم لخطبتها ، وعندما حصل على الإذن ، بدأ يتقرّب منها ، معتمدًا على ما جمعناه له من معلومات ، ولكنها عادت إلى (القاهرة) ، فعاد خلفها ، وتقدّم لطلب يدها ، وتزوّجها ..

صمت لحظات ، ثم تابع :

ــ ولكنّ مهمّته لم تتوقّف ، وكان عليه أن يتابعها فى

باريس) ، ولأنه ضابط كُفء ، يحترم أصول السرّيّة وقواعدها ، فقد أخفى طبيعة عمله عن الجميع ، حتى عنكم ، وعنك أنت يا سيّدتى ، ما دامت مهمته لم تنته بعدُ ، وكان ينوى إخبارك بالأمر بعد انتهاء مهمّته ، إلّا أنك رفضت منحه الفرصة لذلك ، وغادرت (باريس) غاضبة .. والواقع أنه تركك ترحلين لسببين : أوّلهما : أنه لم يكن يستطيع إبلاغك بحقيقته ، قبل انتهاء مهمّته ، وثانيًا : لأن زميله كان قد أصيب ، عندما تورّط مع الشرطة الفرنسية ، فى أثناء محاولة سرقة بعض المستندات ، من رجل مخابرات مُعادٍ ، وكان من المحتّم أن يتولّى (شريف) الأمر بنفسه .

تمتمت (سُميّة) :

ــ كان ينبغى أن يبلغنى .. إننى زوجته .

هزّ رأسه ، متمتمًا فى أسف :

ــ لم يكن ليفعل أبدًا .. أنت لا تعرفين كم هو رائع ، ومخلص ، وشريف .

غمرتها سعادة بالغة ، وهى تستمع إلى هذا الوصف ، وامتلأت نفسها بالفخر ؛ لأنه زوجها ، وهتفت فى لهفة :

— وأين هو الآن ؟.. ولماذا أرسلكما إلىّ ، بدلًا من أن يأتى بنفسه ؟

تبادل الرجلان نظرة قَلَق ، وغمغم الأصغر :

— هذا هو أصعب جزء فى الموقف كله يا سيِّدتى .

شَحُبَ وجه (سُميَّة) ، وهتفت فى ذُعْر :

— ماذا هناك ؟.. ماذا حدث ؟

تنهَّد الأكبر ، وقال :

— إنه مُصابٌ يا سيِّدتى .. مصابٌ إصابة بالغة الخطورة .

اتسعت عيناها فى ذُعْر ، وهتفت فى هَلَع :

— مُصاب ؟!

أجابها الأصغر فى أسف :

— لم نكن نحبّ أن ننقل إليك هذا الخبر يا سيِّدتى ، ولكن السيِّد رئيس المخابرات رأى ضرورة إبلاغك بكل التفاصيل ، فقد .....

أطرق برأسه ، وكأنما يخشى مواجهة عينيها ، وهو يستطرد :

— فقد تكون نهاية المقدَّم (شريف) ..

* * *

كان غائبًا عن الوعى ، يرقد وسط عدد من الأجهزة الحديثة ، التى تتصل كلها بجسده ، عن طريق عدد من الأنابيب والأسلاك ..

وعلى الرغم من ذلك ، فقد بدا لها قويًّا كالمعتاد .. فارسًا ، حتى فى غيبوبته ..

وسال الدّمع من عينيها غزيرًا ، وهى تتطلَّع إليه ، وطبيب المستشفى العسكرىّ يقول فى إشفاق :

— لقد أصيب بثلاث رصاصات ، ولولا جسده القوىّ لَلَقِىَ حَتْفَهُ علىِ الفَوْر .. ولقد نجحنا فى نقله على طائرة خاصَّة إلى هنا ، وأجرينا له جراحة معقَّدة ، ولكننا لم نطمئن إلى نجاته بعدُ .

قالت من وسط دموعها الغزيرة :

— ومتى يمكنكم الاطمئنان على ذلك ؟

أجابها فى خُفُوت :

— بعد مُضىّ ثلاث ساعات على الأقل .

خفَق قلبها بين ضلوعها فى خوف ، وهى تسأله :

— ما الذى يمكن أن يحدث بعدها ؟

تردَّد لحظة ، ثم أجاب :

ـ إمَّا أن يستيقظ .. أو .....
لم يتم عبارته ، ولكنها أدركت معناها ..
ولم تنبس ببنتِ شَفَة ..
فقط راحت تتطلَّع إلى زوجها فى حَنان وحزن ..
لماذا لم يخبرها ؟
لماذا تركها فى دوَّامة حَيْرتها هذه ؟..
هل بلغ إخلاصه لوطنه هذا الحدّ ؟..
كم هو فارس حقًّا ..
إنه أعظم من كل فُرْسان الروايات ، التى قرأتها فى حياتها كلها ..
إنه فارس حقيقىّ ..
فارسها هى ..
إنه لم يأتِ على صهوة حصان أبيض ..
لم يختطفها بسيفه ..
لقد أتاها بابتسامة ..
واختطفها برقَّة ..
إنه فارسها ..
راحت تتأمَّل ملامحه الشاحبة ، التى لم يمح الشُّحوب

وسامتها ، ثم امتدَّت أناملها تتحسَّس وجنته فى حنان ، وتجمَّعت فى عينيها دمعة كبيرة ، لم يحتمل جفنها ثقلها ، فهوَت على شفتيها ، وذابت بينهما فى رفق ..
ومن أعماق قلبها همست (سُميَّة) :
ـ حبيبى .. استيقظ .. استيقظ من أجلى .. لا تضيِّع سعادتنا أبدًا .. إنك فارس أحلامى ، وأمير أيَّامى .. استيقظ .. عُدْ إلىَّ لأمنحك كل ما يمتلئ به قلبى من حُبٍّ .. عُدْ إلىَّ .
أمسكت كفَّه فى راحتها ، واحتضنتها فى صدرها ، وسالت دموعها ناعمة ساخنة ، وهى تستطرد :
ـ عُدْ يا (شريف) .. أرجوك .
وراحت تتابع عقرب الدقائق بعينيها فى لهفة ..
لقد قال الطبيب ثلاث ساعات ..
ولقد بقيت كلها تقريبًا ..
الوقت يمضى فى بطء رهيب ..
عقرب الثوانى يبدو وكأنه قد ترقَّى إلى عقرب دقائق ..
وعقرب الساعات لا يتحرَّك قيدَ أنْمُلَة ..
كم تتمنَّى أن يمضى الوقت !!

كم تتمنّى أن تراه واقفًا أمامها ، بابتسامته العذبة ، ووجهه المشرق ..

كم تمنّت لو عاد إليها ..

ومع مرور الدقائق فى بطء ، راحت أعصابها تلتهب ، وتتمزّق ..

ومضت الساعات الثلاث كعمر بأكمله ..

ولكن (شريف) لم يستيقظ ..

لقد بقى فى غيبوته ..

ولم تفقد (سُميَّة) الأمل ، حتى قفز عقرب الدقائق معلنا احتضار آخر دقيقة فى المهلة التى منحها إيَّاها الطبيب ..

وهنا انهارت (سُميَّة) ..

انهارت باكية ، وراحت تهتف فى ألم :

ــ لا يا (شريف) .. لا .. لا تستسلم للموت .. عُدْ إلىَّ يا (شريف) .. عُدْ .. لا ترحل بعد أن علمت مَنْ أنت وكم كنت رائعًا .. عُدْ يا (شريف) .. أرجوك .. عُدْ وسأمنحك حبًا لم أمنحه لمخلوق من قبل .. عُدْ وسأجعل من كل لحظة فى عمرك نهرًا للسعادة .. عُدْ يا (شريف) .. أرجوك ..

انتفض جسدها كله مع سماعها ذلك الصوت الواهن الضعيف ، وهو يقول فيما يشبه الهمس :

ــ أهذا وعْد ؟.

رفعت عينيها إليه فى لهفة عارمة ..

لقد عاد ..

عاد من أجلها ..

عاد وهو يحمل على شفتيه ابتسامته العذبة ، التى لم يهزمها الشُحوب ..

وخفَق قلبها فى قوّة ..

واندفعت إليه تغمر وجهه بالقُبُلات ، وتغسله بالدموع ، وهو يتمتم فى وَهَن ، دون أن يفقد ابتسامته :

ــ أحبُكِ .

لم تنطق بكلمة ، ولكنَّ قلبها خفق بين ذراعيه ..

الآن فقط أدركتْ مَنْ هُوَ زوجها ..

هذا الرجل ..

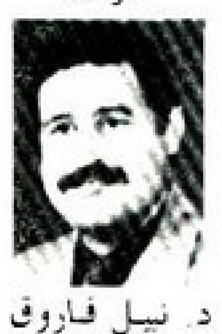
* * *

[تمت بحمد الله]

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى



المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

هذا الرجل

لم تكن (سُمَيّة) تعرف زوجها جيّدا، قبل خطبتها، ولكنه أسرها بشخصيته الجذّابة، حتى كانت أسعد أهل الأرض بزفافها إليه.. ولكن.. فجأة، شعرت أنها تجهل كل شيء عنه، وأنه يبدو لها غامضًا.. ومخيفًا.. وأصبح السؤال الذي يؤرّقها ليل نهار هو مَنْ؟.. مَنْ هذا الرجل ؟!..



الثمن في مصر ١٠٠ ص

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم